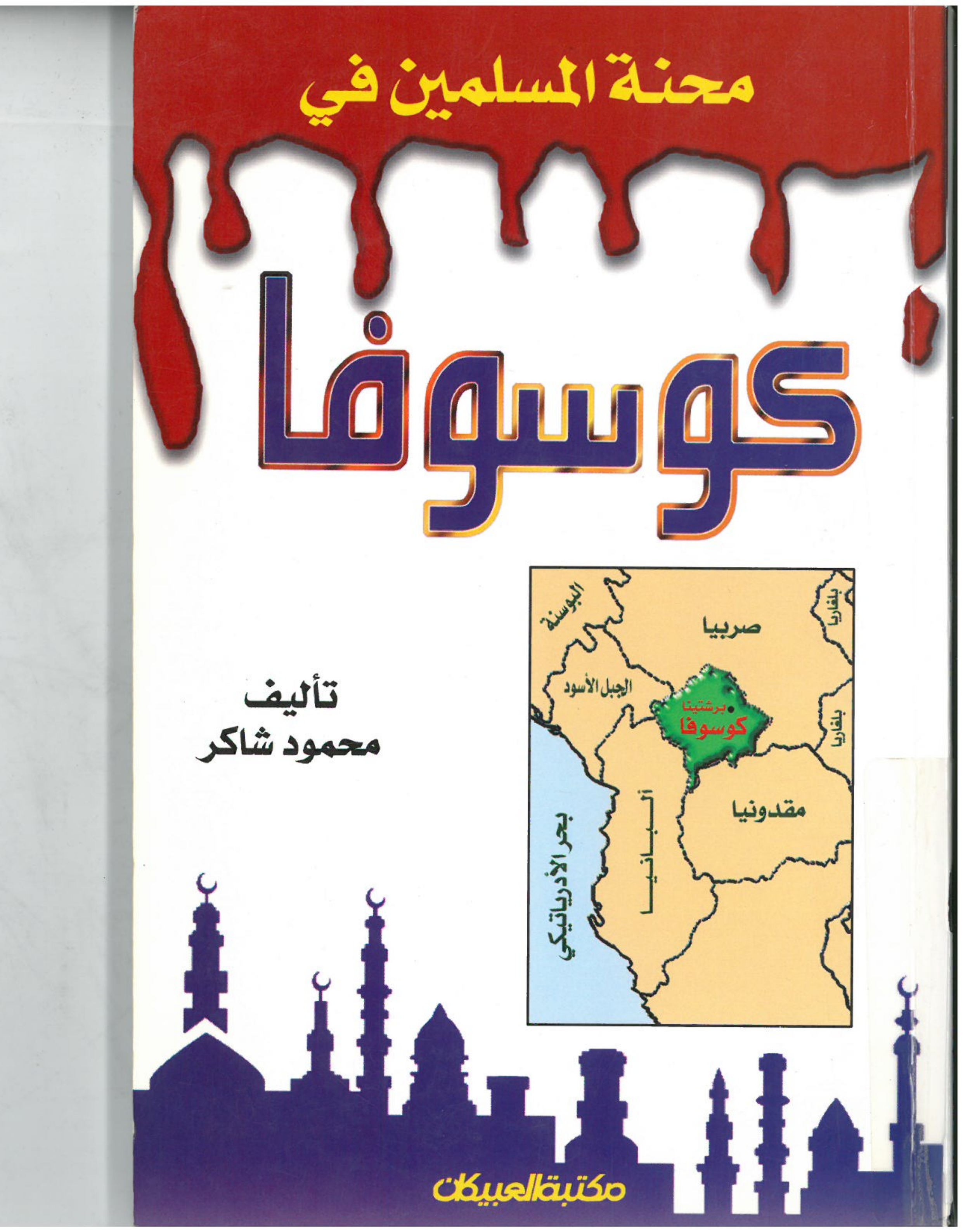

محنة المسلمين في
كوسوفا
تأليف
محمود شاكر
صربيا
البوسنة
بلغاريا
الجبل الأسود
برشتينا
كوسوفا
بلغاريا
مقدونيا
ألبانيا
بحر الأدرياتيكي
مكتبة العبيكان

محنة المسلمين

في

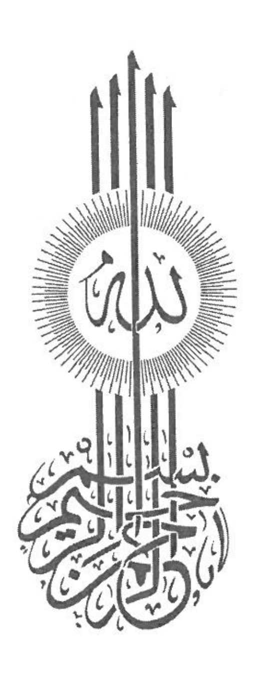
كوسوفا

«قوصوى»

تأليف

محمود شاكر

مكتبة العبيكان



ح مكتبة العبيكان، ١٤٢٠هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

شاكر، محمود

محنة المسلمين في كوسوفا. - الرياض.

١٣٩ص، ١٤ X ٢١ سم

ردمك: ٩-٦٤٥-٢٠-٩٩٦٠

١- كوسوفو (يوغسلافيا) - تاريخ ٢- المسلمون في كوسوفو (يوغسلافيا) أ- العنوان

ديوي ٩٤٩,٧١ ٢٠/٣٢٥١

ردمك: ٩-٦٤٥-٢٠-٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٢٠/٣٢٥١

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة.

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين خاتم النبيين ورسل الله أجمعين وعلى إخوانه المبشّرين المنذرين وعلى آله وصحبه جميعاً أما بعد:

فإن الكفر ملّة واحدة لا فرق بين عابدٍ للبقر، وساجدٍ للوثن، ومُقدّسٍ للصليب، وراكعٍ لمخلوقٍ، وتابعٍ لكتابٍ محرّفٍ، ومُوادٍّ لكافرٍ، وقائم بغير ما أنزل الله، ومُحاربٍ لشرع الله. هؤلاء جميعاً يحقدون حقداً عنيفاً على الإسلام، ويكادون يتميّزون غيظاً من أهله الذين يلتزمون بأحكامه، ويدعون إلى تطبيق شرعه، ويُطالبون الناس كلهم باتباعه، ويُبيّنون فضائله، ويُوضّحون محاسنه، ويُؤكّدون للعالم أن لو سار على منهجه لعمّت الأخوّة، ولسادت المحبّة، وكانت السعادة، وانتشرت الطمأنينة، وعاش الناس في وئامٍ، ولكن يقف في وجه هذا كله أتباع الوثنيات، والمستبدّون، وأصحاب الهوى، ورجال الأطماع، وأهل المصالح، ومن يُحرّكهم الجشع، وتستبدّ بهم الغطرسة.

جاء الإسلام إلى العالم في وقتٍ تسود فيه الجاهليات، وتتحكّم فيه العصبيات، وتتربّع عليه القوّة فكان الثريّ يُذلّ

الفقير، والقويّ يستبدّ بالضعيف، والكبير يستعبد الصغير، وصاحب المكانة يتحكّم بمن لا مكانة له، والقبيلة صاحبة العدد تستولي على أرض القبيلة قليلة الأفراد، وشعوب تُخضع غيرها لسلطانها، وأمم تُسيطر على أخرى، وممالك تتوسّع على حساب من جاورها، لا تنقطع الحروب بين الجوار، ولا تتوقّف الغارات بين قريبي الديار، ويحدث الصراع لأتفه الأسباب، ويقع النزاع بأقل العبارات، وينطلق الغزو للسمعة و...

جاء الإسلام فقرّب بين الطبقات، وسوّى بين الشعوب، وشذّب النفوس، وآخى بين المؤمنين، وجعل التمايز بالتقوى لا بالأنساب، ولا بالأموال، ولا بكثرة الأولاد، ولا بقوة الأبدان، وجعل أجر صدق الإيمان، وإخلاص الأعمال لله الفوز بالجنّة في الآخرة والخلود فيها، وذلك هو الفوز العظيم.

أقبل الناس نحو الإسلام وقد عرفوا منهجه وعلموا شرعه، ودخلوا في دين الله أفواجاً، وذاقوا حلاوة الإيمان فكان ذلك قوةً ذاتيةً فانطلقوا يدعون إلى الله، إلى دينهم الذي وجدوا فيه ما ينسجم مع فطرتهم، ويتفق مع طبيعتهم فيجاهدون في سبيل الله فلم تصمد أمامهم قوة، ولم تقف في وجههم دولة، ولم يثبت

لهم جيش، فتغلبوا على القبائل والجماعات في جزيرتهم حيث مهدهم الأول فدعوا من وقف أمامهم فإن لبىّ وأجاب غدا أخاً لهم، له الذي لهم وعليه الذي عليهم، وإن لم يُجب دعوتهم، عرضوا عليه دفع الجزية على أن يكون من أهل الكتاب أو ممن يلحق بهم من المجوس فإن وافق كفّوا عن قتاله، وأصبح في ذمّتهم يحمونه، ويدافعون عنه، وهو لا يأوي عدواً لهم، ولا يدلّ على عوراتهم، ولا يُجاهر بما يُخالف تعاليم الإسلام ومبادئه، وإن استعلى واستكبر وأبى إلا البقاء على الكفر أو أصرّ على القتال فلا بُدّ هنا من استعمال السيف، وكان الجهاد به، وكانت معارك الإسلام.

تقدّم المسلمون نحو الشرق فدحروا الفرس أمامهم فأزالوا دولتهم، وقضوا على مجوسيتهم فكأنها لم تكن، وأقبل الناس جميعاً نحو الإسلام طوعاً سوى قلّةٍ أظهروا الإسلام بألسنتهم ولم تُؤمن قلوبهم عصبيةً لما فقدوا من مراكز، وجاهليةً لما أضاعوا من هيبةٍ حسب تصوّرهم، وحميّةً لهزيمتهم في المعارك، وتأثراً لما خسروا من قتلى، فأبطنوا الكفر، ينتظرون الفرصة المواتية لهم، وإن لم يستطع هؤلاء فعل شيءٍ مُهمٍّ إلا أنه كان لهم دور في الفتن التي وقعت، والخلافات التي حدثت، وإثارات البلاء التي

أضرموها بين الأسر والجماعات. زالت دولة الفرس وهي إحدى كُبريي دول العالم يومذاك.

وتحرّك المسلمون نحو الشمال فأزالوا الروم عن مواقعهم، إذ تخلّوا عن الشام ومصر وعن أجزاء من تركيا اليوم، وتقوقعوا نحو الشمال متمسّكين بما شملته نصرانيتهم من وثنيات(١). مُقدّسين قساوستهم ومالهم من منافع، ومطيعين أباطرتهم وما لهم من مصالح، وبقوا يخشون المسلمين، ويخافون منازلتهم كما تخشى الثعالب أسود الغاب، وقد كان المسلمون أسود الوغى، وإن كان الروم ينتهزون بعض الفرص للقيام ببعض الغارات لإظهار أن روحهم لا تزال فيهم، وأنهم على الساحة، وإن كانوا لا يسمعون بقدوم المسلمين حتى يعودوا إلى حصونهم، ويختفوا في جحورهم. وكانت دولة الروم البيزنطية إحدى كُبريي دول العالم آنذاك أيضاً، فهي ودولة فارس ولا سواهما في تلك المرحلة.

وبقي المسلمون سادة العالم ما تمسّكوا بعقيدتهم، وصدقوا الله، وأخلصوا العمل له، وانتبهوا إلى إعمار الأرض مع علمهم

(١) الوثنية: اتخاذ أنداد لله سبحانه وتعالى من حيوانات ونباتات وجمادات كالأبقار والأشجار والأحجار، وغيرها من المخلوقات، وما اتخاذ ولدٍ لله أقلّ شركاً ووثنيةً من الشرك باتخاذ تلك الأنداد.

أنها فانية وأنه ليس لهم مما يجنون فيها سوى ما عملوا من خير، وما قدّموا من صلاحٍ، وما صدقوا مع الله، وما أطاعوا ما أُمروا به، فمن حاز ذلك فقد نال الفوز العظيم وحصل على الأجر الكبير فزُحزح عن النار وأُدخل الجنة. وكانوا إخوةً فيما بينهم، ورحماء على من في ذمّتهم، ويعطفون على كل مخلوقٍ، ويحبّون له الخير لذا يدعونه إلى ما آمنوا به، ووجدوا فيها الراحة والخير، الخير كله، فكان يُقبل عليهم أصحاب النفوس الرضية، ويُقلع عنهم أهل الهوى والمصالح والشهوة ومن في نفوسهم كبر، وتربّوا على البطر، ومن في طبيعتهم الغطرسة والجبروت **﴿مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾** [**الأعراف**: ١٨٦].

وتراجعت سيادة المسلمين عن الساحة بإخلادهم إلى الأرض، وعبّهم من معينها، ونسيانهم مهمتهم في الأرض، وتركهم دورهم في الكون، ومع تراجع المسلمين هذا كان تقدّم الطرف الآخر الذين كانوا بالأمس يتقهقرون فتحرّك البيزنطيون في المشرق وكذا الروم والفرنجة في الغرب وارتفع صوت رجال الكنيسة. واستمرّ المسلمون في سيرهم نحو الدنيا، وأعداؤهم في تطلّعهم نحو

الاستعداد. واضطر المسلمون للخروج من الأندلس، وتبعهم خصومهم يُلاحقونهم في كل أرضٍ.

أصاب المسلمين الوهن وحلّ بهم الضعف، وشعر الطرف الثاني بنشوة الظفر فأخذ بالاستعلاء، وتبدّلت المفهومات الإنسانية بتبدّل رجال السيادة في العالم وتغيّر المناهل التي يستقي منها أولئك الرجال، فلما كان المسلمون سادة الدنيا، وكان منهلهم الإسلام يستقون منه، ويطبقون شرعه كانت العدالة والسماحة والمحبّة هي السائدة والمتعارف عليها والمتعامل بها، ولما يعرف المسلمون من خير في منهلهم كانوا يدعون سكان العالم ليسود الخير، وما اندفاع المسلمين من مواطنهم وجهادهم لأعدائهم إلا للدعوة إلى هذا الخير. فلما ساد الروم والفرنجة ومن خلفهم وكان منهلهم مغيّراً عن نبعه الأصلي غابت العدالة، وزالت السماحة، واختفت المحبة، وساد التمييز، وظهرت الأحقاد، وبدت الضغائن، وانتشرت المفاسد، وكان هذا كله موجّهاً ضد المسلمين، ومحاولةً للطعن بالإسلام.

وسيطر أباطرة الروم والفرنجة على أكثر الأمصار الإسلامية فعملوا فيها إفساداً، وتفرقةً، ودعاياتٍ وشائعاتٍ إضافةً إلى نهب

خيراتها، وإذلال سكانها، وفتح المجال بطرق مخفيةٍ لمن يريد أن يبيع نفسه للوصول إلى مركزٍ، أو تأمين شهرةٍ، وفُتحت الأبواب على مصراعيها، وزُينت الدنيا فحلت عند بعضهم، واسودّت في نظر آخرين، فأما الذين حلت في وجههم فقد نزلوا المزاد، ولُمعوا، وبرزوا، وغبّوا، واشتهروا، ورتعوا، وأذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا، وأما الذين اسودّت في وجوههم فقد أبوا العبودية لغير الله، وزهدوا في العاجلة وآثروا الآجلة، وكان في ذلك الدرس والعبرة وكانت الموعظة والحكمة، وكان الابتلاء والاختبار فمن كان نهماً فشل، ومن كان متأنياً محتسباً فاز ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً ﴿٨﴾**﴾ [الكهف: ٧، ٨] و﴿**تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾**﴾ [القصص: ٨٣].

وظهرت في هذه المرحلة الدولة العثمانية، وكان في ظهورها عبرة بالغة، وهي أن المسلمين لم ينتهوا عن الساحة بل يمكن أن يعودوا في وقتٍ يتمسّكون فيه بعقيدتهم، ويُطبقون شرع الله.

ظهرت الدولة العثمانية، وتقدّمت في أرض العدو، في قارة

أوربا، ودحرت حشوده، وقضت على تحالفاته، ولم تبال بمؤتمراته، وانتشر الإسلام في بعض ربوع تلك الأرجاء، وإن كان على نطاقٍ ضيقٍ إذ أن مسار الدولة العثمانية كان عسكرياً أكثر منه دعوياً لظروف سادت ومراحل كانت. وكانت منطقة قوصوى (كوسوفا) من المناطق التي انتشر فيها الإسلام في تلك المرحلة.

وتكالب الأعداء على الدولة العثمانية، وجمعوا كيدهم، وتقدّموا صفاً واحداً، وتحت الضربات الخارجية والحركات الداخلية انتهت دولة الخلافة عن الساحة وسقطت في الميدان، فتنفّس الأعداء الصعداء، وكشّروا عن أنيابهم، وقدموا بغطرسةٍ وجبروتٍ يدفعهم الحقد على الإسلام، وترافقهم نشوة الظفر.

شعر الأعداء بضعف المسلمين فانتفشوا، وشعروا بالتمكين من ديار المسلمين فازدادوا انتفاخاً، وأحسّ المسلمون بالهوان فأصاب بعضهم النقص، فامتدت للأعداء أيدٍ، وفُتحت أذرع واحتضنت، وصارت تبعيات، وانتشرت أفكار غريبة، وظهرت مفاسد غير معروفة، ورحّب ذميون وهللوا، فزادت نكبات المسلمين، وتكاثرت عليهم الذئاب وزاد عواؤها، وأخذت التجزئة تكثر، والتفرقة تعمّ، والضربات تحلّ، والدماء تسيل، والدموع لا تنقطع.

تصرّف الأعداء الغرباء تصرّف المالك المستبدّ والظالم الحاقد فإضافةً إلى النكبات التي نزلت بالمسلمين والمحن التي حلّت بهم، والأذى الذي لحق بهم والذلّ والهوان الذي أصابهم، والمفاسد التي انتشرت بينهم، والأفكار الغريبة التي تسرّبت إليهم فإن المتحكمين من الأعداء قد جعلوا نقاط خلافٍ بين الأمصار يُثيرونها في الوقت التي يريدون، ويشعلون نارها عندما يرغبون، لذا لا نزال نرى الخلافات تقع بين مدةٍ وأخرى بين هذا الإقليم وذاك، هذا بالنسبة إلى داخل ديار الإسلام أما على هامشها، فقد اقتطعت أجزاء من البلدان الإسلامية ووضعت تحت سلطان غير المسلمين من أية ملّةٍ كانوا ما دامت ملّة الكفر واحدةً، فكان أصحاب السيطرة يصبّون جام أحقادهم وضغائنهم على المسلمين، يريدون إبادتهم والقضاء عليهم أو إذابتهم فيما يعتقدون من كفرٍ **﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١٢٠) ﴾** [البقرة: ١٢٠]. وما كانت تمرّ مدة إلا وتُردّد وسائل الإعلام بنكبةٍ نزلت بالمسلمين بأيدي من يُجاورهم أو يتسلط عليهم، فجنوبي الفيليبين، وكشمير، وفلسطين، والبوسنة، وكوسوفا ثم الأقليات المسلمة في كل أرضٍ

يسكنونها، ولم يكن مخطط النكبة ليهدف إلى أقل من الإبادة أو الإذابة بالارتداد عن الإسلام.

وشُغل المسلمون بما نزل بهم نتيجة سيطرة أعدائهم على أمصارهم، ولما انتشر عندهم من أفكارٍ غريبةٍ كالعصبية القومية فلم يَعُد اهتمامهم خارج دائرة بلدانهم إلا قليلاً، وغدوا لا يعرف أكثرهم أمصار إخوانهم البعيدة أو تلك التي تقع على هامش ديار الإسلام، وبالتالي فالأقليات المسلمة تقع خارج دائرة معرفتهم، وعندما تنزل نازلة بالمسلمين في هذه المناطق التي نتكلم عنها فإنها لا تَجدُ اهتماماً لدى المسلمين لعدم معرفتهم بأهل تلك الديار، ولم يكن لها صدى واسع لعدم السماع بتلك الأرجاء فالجهل بالشيء يضعف الاهتمام به.

وعندما أخذت الصحوة الإسلامية تظهر بقيت هذه الأجزاء الإسلامية على هامش ديار الإسلام والأقليات المسلمة دون المستوى المطلوب من الاهتمام وذلك للجهل بها إذ بقيت خارج دائرة المناهج التعليمية بل وخارج دائرة الساحة الإعلامية بل إن أكثر الأمصار العربية سكاناً وأقدمها منهلاً للمعرفة لا تزال هذه الأجزاء التي نتكلم عنها ضمن البلدان الوثنية والمعادية للإسلام،

وما يرسم مصور للعالم الإسلامي في هذا المصر إلا وهذه الأجزاء خارج نطاق العالم الإسلامي، فالبوسنة، وكوسوفا، والشاشان لم يُسمع بها لولا أن جرى بها ما جرى، ولولا الذي حدث ربما لم يسمع بها إلا القليل رغم أننا كتبنا عن هذه الموضوعات منذ خمسٍ وثلاثين سنةً، ولكنه الجهل، والعصبيات، والاهتمام بغير ذلك.

فنرجو من الله أن أستطيع تقديم معلوماتٍ كافيةٍ في هذه الرسالة عن إقليم كوسوفا، وبه أستعين، وعليه أتوكل فهو نعم المولى ونعم النصير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

البلقان

يقع إقليم كوسوفا في البلقان، والبلقان شبه جزيرةٍ تقع في جنوب شرقي قارة أوربا بين البحر الأسود في الشرق والبحر المتوسط وتفرُّعاته بحر مرمرة وبحر إيجه في الشرق، والبحر الإيوني وبحر الأدرياتيك في الغرب، ويُعدّ نهر الدانوب حدودها الشمالية تقريباً، وتتبعها مجموعات من الجزر الكثيرة المتناثرة في فروع البحر المتوسط خاصةً.

وتشمل شبه جزيرة البلقان الوحدات السياسية الآتية:

١- يوغوسلافية: وتبلغ مساحتها ٢٥٥,٨٠٠ كم٢.

٢- اليونان: وتبلغ مساحتها ١٣١,٩٤٠كم٢.

٣- بلغارية: وتبلغ مساحتها ١١٠,٩١٠ كم٢.

٤- ألبانيا: وتبلغ مساحتها ٢٨,٧٥٠ كم٢.

٥- تراقيا: وتبلغ مساحتها ٢٣,٦٢٣ كم٢.

٥٥١,٠٢٣ كم٢

وتتبع تراقيا تركيا، وهي الجزء الأوربي منها.

وبذا تكون مساحة البلقان أكثر من نصف مليون كيلومتر

مربع، وهذا ما يعادل أكثر من ١/ ٢٠ من مساحة القارة الأوربية، وقريبة من مساحة فرنسا، وأكبر منها بقليلٍ.

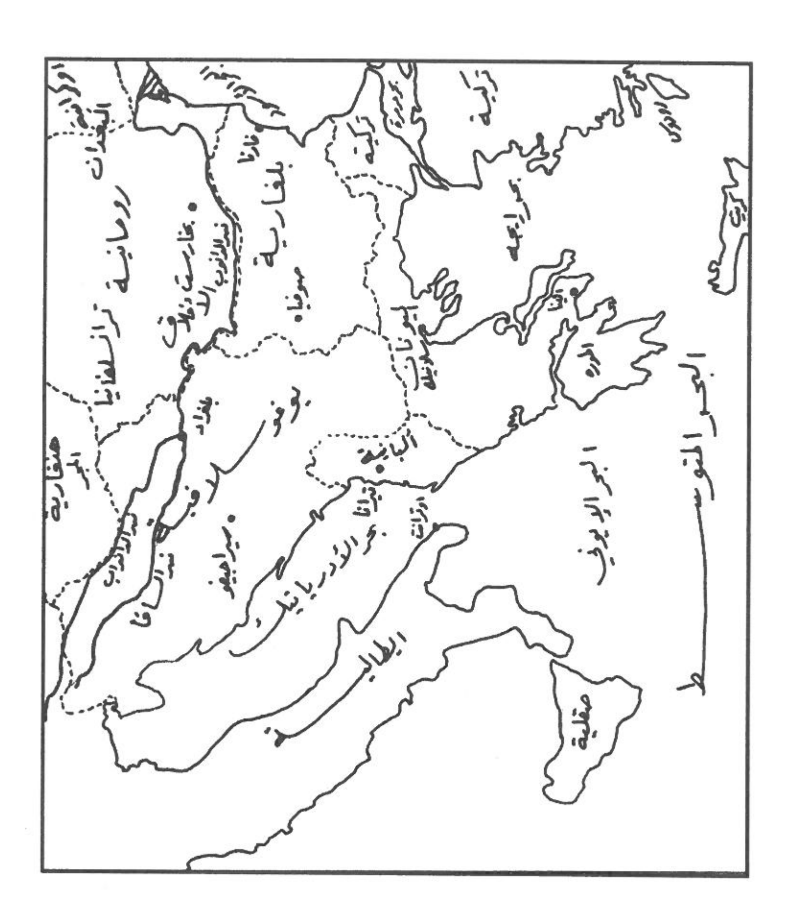
وتشغل الجبال أكثر مساحة البلقان فتمتدّ جبال الألب الدينارية في الغرب على طول امتداد بحر الأدرياتيك، وتصل أحياناً حتى خط الشاطئ فلا تترك أي مجالٍ للسهول الساحلية، وقد تتسع السهول الساحلية أحياناً كما هي الحال في ألبانيا وبعض الأجزاء من اليونان، كما نجد في الجنوب في اليونان جبال (يندُس)، وفي الداخل جبال البلقان في شمالي بلغاريا، وجبال (رودوپ) في جنوبيها. وليست هذه الجبال بالشاهقة فجبال الألب الدينارية في الغرب تزيد على الألفي متر ارتفاعاً، وتصل على الحدود بين ألبانيا ومقدونيا إلى ٢٧٠٢م.

ويصل ارتفاع جبال البلقان في بلغاريا إلى ٢٣٧٦م، وجبال (رودوپ) إلى ٢٩٢٥م، وأعلى قمة في البلقان كلها هي جبال (اوليمبوس)، ويصل ارتفاعها إلى ٢٩٨٥م، وتقع في بلاد اليونان.

أما السهول فهي قليلة نسبياً، وتكون على مجاري الأنهار، وأوسعها ما كان على ضفاف نهر الدانوب في يوغوسلافيا وبلغاريا، وكذلك ما كان على ضفاف نهر (مارتيزا) في بلغارية،

وتراقيا، وهناك السهول الأخرى التي تجاري الأنهار الصغيرة نسبياً مثل سهول نهر (فاردار) في مقدونيا واليونان، وهناك السهول الساحلية في ألبانيا، وتراقيا.

والمناخ متوسطي حار صيفاً معتدل شتاءً، تتساقط أمطاره في الشتاء والربيع.



إعمار البلقان

خلق الله الإنسان على سطح الأرض، وأغلب الأدلّة وأقواها يُشير إلى أن جزيرة العرب كانت المهد الأول للإنسان، وتكاثر البشر فأخذ ينساح في مختلف الجهات، ونزلت القبائل الأليرية في عصور ما قبل التاريخ على شواطئ بحر الأدرياتيك الشمالية والشرقية قبل اليونانيين، وكان ذلك حوالي عام ١٥٠٠ قبل الميلاد، وانتشرت في أنحاء البلقان، ثم اجتمعت، وانتخبت ملكاً لها، وتعاقب عليها الملوك إلى أن تغلب عليهم الرومان، ومواطنها الرئيسية: ألبانيا، كوسوفا، مقدونيا، شمالي اليونان، وتتناثر على هوامش هذه المناطق.

ويقال: إن هذه القبائل الأليرية قد قدمت من منطقة القوقاز من جهات داغستان وشروان، ويقال: بل إنها عناصر آرية. كما يقال: إنها من أصلٍ حامي وقد قدمت من بلاد المغرب، ويقال أيضاً: إنها من عرب الشام.

ومن هذه العناصر الأليرية الألبانيون الذين يُطلقون على أنفسهم اسم (سكيتبار)، بينما يطلق عليهم الأتراك اسم (الأرناؤوط)، ويُسمّيهم العرب (الألبان).

والألبان مجموعتان:

١- غيجاريا في الشمال، ويُعرف من ينتمي إليها باسم (الغج).

٢- توسكاريا في الجنوب ويسمى من ينتمي إليها باسم (التوسك).

ويفصل بين المجموعتين تقريباً مجرى نهر شكومبي، وتقسم كل مجموعةٍ إلى عددٍ من القبائل. وبقي سكان الجبال منعزلين عن غيرهم، لم يختلطوا بمن جاء بعدهم إلى المنطقة وجاورهم.

اليونانيون:

وجاء اليونانيون من الجنوب ونزلوا في جنوبي البلقان في المنطقة التي نُسبت إليهم، أو نسبوا إليها، وأسّسوا دولةً امتدّت على أرجاء واسعةٍ، وغزا الاسكندر الكبير المقدوني بلاداً شاسعةً في آسيا وإفريقية، واستمرّت دولتهم مدةً ثم زالت، وخلفهم الرومان.

الرومان:

وأتى الرومان من الجنوب أيضاً، وسيطروا على أملاك

اليونانيين، وخضع لهم الألبان حتى سقطت روما عام ٤٧٦م بيد البرابرة الجرمان، فعاد للألبان استقلالهم وسلطانهم على بلدانهم إلى أن رجع إليهم البيزنطيون.

بقي جناح الدولة الرومانية الشرقي بعيداً عن أيدي الجرمان الذين دخلوا روما قاعدة الدولة الرومانية، فنهض الجناح الشرقي وقامت فيه الدولة الرومانية الشرقية التي عُرفت بالإمبراطورية البيزنطية التي قاعدتها القسطنطينية، وتوسّعت في الشام ومصر، وامتدّ نفوذها إلى المغرب وعلى بلاد الألبان، واصطدمت بالدولة الفارسية، واستمرتا في صراعٍ حتى جاء الإسلام فقضى على الدولة الفارسية ودحر الدولة البيزنطية.

انتشرت الديانة النصرانية في الدولة الرومانية، ولبستها وثنية الرومان السابقة، فحملت الوثنية اسم النصرانية، ودخلتها فعلاً بعض الطقوس. على حين أن النصرانية قد دخلت إلى الألبان قبل أن تلبسها الوثنية فبقيت نصرانية الألبان مختلفةً عن نصرانية الرومان.

وانقسمت النصرانية إلى كاثوليكية انتشرت في غربي الدولة الرومانية وإلى أرثوذكسيةٍ سادت في شرقي تلك الدولة أو

بالأحرى فيما عُرف بالدولة البيزنطية. وامتدّت الكاثوليكية إلى شمالي بلاد الألبان، وامتدّت الأرثوذكسية إلى جنوبي بلادهم، وبقيت النصرانية في وسط البلاد وفي المرتفعات كما وصلت إليهم فكانت طائفة خاصة عُرفت بـ «البوغوميلية»، وقد خضع أتباع هذه الطائفة إلى ضغط الكاثوليك في الشمال وإلى ضغط الأرثوذكس في الجنوب.

وهكذا عمر جنوبي البلقان والأجزاء الغربية منها بالسكان، وبقيت الأجزاء الشمالية منها شبه فارغة.



السلاف:

قضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يُرسل إلى كل قومٍ من يدعوهم إلى عبادة الله، ويُعرّفهم على ما فيه صلاحهم في دنياهم وأُخراهم، فمنهم من كان يقبل ويستجيب، ومنهم من يرفض ويردّ دعوة الله، واقتضت حكمة الله أن يُعاقب أحياناً من يجحد ويُنكر فيُسلّط عليه آخرين يسومونه سوء العذاب، ويُلاحقونه حيث فرّ، هذا في الدنيا وفي الآخرة عذاب عظيم، جهنم يصلّونها وبئس المصير.

فكان بعض الأقوام الجاحدة يفرّون أمام عدوّهم حتى يدخلوا غاباتٍ كثيفةً يختبئون فيها أو صحاري شاسعةً يضيعون فيها، أو فيافي باردة يلتجئون إليها يتحمّلون قسوتها ويصبرون على بردها خوفاً من عدوهم الذي يُطاردهم ويتحيّن الفرصة للوقيعة بهم.

ومن هذه الأقوام السلاف الذين انطلقوا نحو الشمال أمام عدوّهم حتى وصلوا إلى الأصقاع الباردة فتوقّف العدو عن المطاردة فأقام السلاف حيث وصلوا وانتشروا في تلك الأرجاء، وتفرّقوا تجمّعات يتجرّعون مرارة الحياة هناك، ولما طال بهم العهد، وأحسّوا بالطمأنينة من عدم وجود عدوّ أخذوا يتّجهون

نحو الجنوب، وصاروا يُغيرون على هوامش الدولة البيزنطية، ويقتلون وينهبون ما يستطيعون سلبه.

وفي السنة الرابعة للهجرة (٦٢٦م) جلب هرقل الإمبراطور البيزنطي قبائل من الصرب والكروات كمرتزقةٍ لحماية الحدود الشمالية البيزنطية من هجمات السلاف والأفاريين.

وفي السنة الثامنة للهجرة (٦٣٠م) هاجر من بُلغار[1] جماعة من سلاف تلك المنطقة واتجهوا نحو الجنوب الغربي حتى وصلوا إلى الموقع المعروف اليوم باسم بلغاريا على سواحل البحر الأسود الغربية فأقاموا، وحملت المنطقة اسم (بلغاريا) نسبة إلى بُلغار المكان الذي خرجوا منه. وسكان بلغاريا اليوم من أحفادهم.

(١) بُلغار: موقع مدينة قازان اليوم، على نهر الفولغا، إلى الشرق من مدينة موسكو وإلى الشمال قليلاً، على بعد سبعمائة كيلومتر منها.

وصول الإسلام إلى البلقان

من تجمّعات قبائل السلاف في الشمال ما كان حول مدينة بُلغار (قازان) اليوم، وقد أخذت المنطقة كلها اسم قاعدتها بُلغار، وكان السكان جميعاً لا يزالون على الوثنية. وشاءت إرادة الله أن يزورهم بعض تجار الفراء المسلمين وأن يدعوهم إلى دينهم، وأن يشرحوا لهم الإسلام، فارتاحت نفوس البُلغار لما سمعوا، واطمأنت أفئدتهم، وآمنت قلوبهم.

غير أن تجار الفراء لم يلبثوا أن غادروا المنطقة وتركوا من أسلم دون منهل يستقون منه يروون قلوبهم الظمأى التي قبلت الإسلام وتعلّقت به. وإن كانوا يمرون أحياناً للتجارة وللدعوة. وكان أحد هؤلاء التجار، ويُدعى (نذير الحزمي) قد حدّث ملك الصقالبة (ألمس بن شلكي بلطوار) عن الإسلام فسُرّ الملك بحديثه وأعجب ببيانه فبعث معه كتاباً إلى الخليفة العباسي المقتدر بالله[1] يسأله فيه

(١) المقتدر بالله: هو الخليفة جعفر بن أحمد المعتضد بن طلحة الموفق بن جعفر المتوكل ابن محمد المعتصم بن هارون الرشيد. ولد المقتدر يوم الجمعة لثمانٍ بقين من رمضان سنة اثنتين وثمانين ومائتين، وأمه أم ولد تدعى (غريب)، ومرض أخوه المكتفي فعهد إليه، وعمره لا يزيد على الثلاث عشرة سنة، ولم يل الخلافة قبله أصغر منه. بويع يوم الأحد لأربع عشرة مضت من ذي القعدة من سنة خمسٍ وتسعين ومائتين، واستمرت خلافته حتى سنة عشرين وثلاثمائةٍ إذ قُتل لليلتين بقيتا من شوال.

أن يبعث إليه من يُفقِّهه في الدين، ويُعرّفه شرائع الإسلام، ويبني له مسجداً، وينصب له منبراً ليقيم عليه الدعوة في جميع أنحاء بلده وأقطار مملكته، ويسأله بناء حصنٍ يتحصّن فيه من الملوك المخالفين له، فأُجيب إلى ذلك.

يقول ابن فضلان[1]: فبدأت أنا بقراءة الكتاب عليه وتسليم ما أهدي إليه. وكان الرسول من جهة السلطان سوسن الرسي[2] مولى نذير الحزمي.

قال ابن فضلان: فرحلنا من مدينة السلام[3] لإحدى عشرة ليلةً خلت من صفر سنة ٣٠٩، ثم ذكر ما مرّ به في الطريق إلى

(١) ابن فضلان: أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد: صاحب الرحلة إلى بلاد الترك، والخزر، والروس، والصقالبة المعروفة بـ «رسالة ابن فضلان». كان من موالي محمد بن سليمان الحنفي (القائد الذي أعاد مصر من الطولونيين إلى الدولة العباسية)، ثم أصبح من موالي الخليفة المقتدر العباسي. وأرسله المقتدر إلى ملك الصقالبة، وقد بعث يرجو العون على مقاومة ضغط الخزر عليهم من الجنوب، وأن ينفذ إليه من يُفقّهه في الدين ويُعرّفه شعائر الإسلام. وقامت البعثة في ١١ صفر ١٣٠٩هـ (٢١ حزيران ٩٢١م)، وقد دوّن ابن فضلان خط سير البعثة، غير أن خط الرجعة لم يعرف لضياع القسم الأخير من الرسالة.

(٢) سوسن الرسيّ: كان رئيس البعثة إلى ملك الصقالبة مع أن أكثر المصادر تشير إلى رئاسة ابن فضلان، ويبدو أن هذا قد نشأ بسبب مكانة ابن فضلان، ورسالته التي تُعدّ المصدر الرئيسي لتلك الرحلة.

(٣) مدينة السلام: بغداد.

خُوارزم، ثم منها إلى بلاد الصقالبة ما يطول شرحه، ثم قال: فلما كُنّا من ملك الصقالبة -وهو الذي قصدنا له- على مسيرة يومٍ وليلةٍ وجّه لاستقبالنا الملوك الأربعة الذين تحت يديه، وإخوته، وأولاده، فاستقبلونا ومعهم الخبز واللحم والجاوَرْس، وساروا معنا، فلما صرنا منه على فرسخين تلقّانا هو بنفسه، فلما رآنا نزل فخرّ ساجداً شكراً لله، وكان في كُمّه دراهم فنثرها علينا، ونصب لنا قباباً فنزلناها، وكان وصولنا إليه يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلةً خلت من المحرم سنة ٣١٠، وكانت المسافة من الجرجانية، وهي مدينة خُوارزم، سبعين يوماً، فأقمنا إلى يوم الأربعاء بالقباب التي ضُربت لنا حتى اجتمع ملوك أرضه وخواصه ليسمعوا قراءة الكتاب، فلما كان يوم الخميس نشرنا المطردين[١] اللذين كانا معنا، وأسرجنا الدابة بالسرج الموجّه إليه، وألبسناه السواد وعمّمناه، وأخرجت كتاب الخليفة فقرأته، وهو قائم على قدميه ثم قرأت كتاب الوزير حامد بن العباس، وهو قائم أيضاً، وكان بديناً، فنثر أصحابه علينا الدراهم، وأخرجنا الهدايا وعرضناها عليه، ثم خلعنا على امرأته، وكانت جالسةً إلى جانبه، وهذه سنتهم ودأبهم، ثم وجّه إلينا فحضرنا قبته وعنده

(١) المطردين: مثنى مطرد وهو اللواء.

الملوك عن يمينه، وأمرنا أن نجلس على يساره، وأولاده جلوس بين يديه، وهو وحده على سرير مغشّىً بالديباج الرومي. فدعا بالمائدة فقُدّمت إليه وعليها لحم مشوي، فابتدأ الملك، وأخذ سكيناً وقطع لقمةً فأكلها وثانيةً وثالثةً، ثم قطع قطعةً فدفعها إلى سوسن الرسول فلما تناولها جاءته مائدة صغيرة فجُعلت بين يديه، وكذلك رسمهم لا يمدّ أحد يده إلى أكلٍ حتى يُناوله الملك فإذا تناولها جاءته مائدة، ثم قطع قطعةً وناولها الملك الذي عن يمينه فجاءته مائدة، ثم ناول الملك الثاني فجاءته مائدة وكذلك حتى قُدّم إلى كل واحدٍ من الذين بين يديه مائدة، وأكل كل واحدٍ منا من مائدةٍ لا يُشاركه أحد ولا يتناول من مائدة غيره شيئاً، فإذا فرغ من الأكل حمل كل واحدٍ منا ما بقي من مائدته إلى منزله فلما فرغنا دعا بشراب العسل، وهم يُسمّونه «السجو» فشرب وشربنا. وقد كان يُخطب له قبل قدومنا: اللهم أصلح الملك بلطوار ملك بُلغار، فقلت له: إن الله هو الملك ولا يجوز أن يخطب بهذا لأحدٍ سيما على المنابر، وهذا مولاك أمير المؤمنين قد وصّى لنفسه أن يقال على منابره في الشرق والغرب: اللهم أصلح عبدك وخليفتك جعفراً الإمام المقتدر بالله أمير المؤمنين، فقال: كيف يجوز أن يقال؟ فقلت: يُذكر اسمك واسم أبيك، فقال: إن

أبي كان كافراً، وأنا أيضاً ما أُحب أن يُذكر اسمي إذ كان الذي سمّاني به كافراً، ولكن ما اسم مولاي أمير المؤمنين؟ فقلت: جعفر، قال: فيجوز أن أتسمّى باسمه؟ قلت: نعم، فقال: قد جعلت اسمي جعفراً، واسم أبي عبدالله، وتقدّم إلى الخطيب بذلك، فكان يخطب: اللهم أصلح عبدك جعفر بن عبدالله أمير بُلغار مولى أمير المؤمنين و...

وهكذا أسلم أهل بُلغار..

أما ملك الروس فقد تحوّل (فلاديمير) إلى النصرانية، وجهر بها ديانةً له، وتبعه قومه عام ٣٧٨هـ (٩٨٨م)، ولما كانت هذه الديانة قد أخذت من القسطنطينية فهي الأرثوذكسية، وهكذا أصبحت القبائل الروسية نصارى أرثوذكس، وأصبحت هذه العقيدة تترسّخ في نفوس الروس.

انتقال قبائل البُلغار:

لقد انتقلت قبائل البوشناق، واستقرّت أول الأمر في منطقة ترانسلفانيا في الأجزاء الغربية من رومانيا اليوم. وبعد مدةٍ عادت فانتقلت إلى الجنوب الغربي أيضاً، وحطّت رحالها فيما يُعرف اليوم باسم البوسنة، حيث أعطت المنطقة التي أقامت بها اسمها (البوسنة نسبةً إلى البوشناق).

وانتقلت قبائل الكومان وأقامت في ترانسلفانيا حيث أقام البوشناق في أول محطةٍ لهم. وانتقلت بعض قبائل الباشغرد، وأقامت في المجر، وقد بقيت قبائل من الباشغرد في مواطنها في منطقة بُلغار في حوض نهر الفولغا، وهي التي تُعرف اليوم باسم (الباشكير) أو (الباشغرد) وعاصمتهم مدينة (أوفا)، ولهم اليوم جمهورية خاصة بهم سكانها من المسلمين. وصلت قبائل الباشغرد إلى المجر في القرن الرابع الهجري فعاشت مطمئنةً، غير أن المجريين قد اعتنقوا الديانة النصرانية على المذهب الكاثوليكي في القرن الخامس الهجري فأخذوا يُضايقون قبائل الباشغرد المسلمة، ويُذيقونها مرّ العذاب ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وإن كان يسمح للمسلمين بالسفر إلى الدول الإسلامية كي يتعلموا أمر دينهم. وقد ذكر ياقوت الحموي صاحب معجم البلدان أنه التقى بأحد أفراد هذه المجموعة عام ٦٢٦هـ (١٢٢٨م) في مدينة حلب فقال: وأما أنا فإني وجدت بمدينة حلب طائفة كبيرة يقال لهم الباشغردية، شقر الشعور والوجوه، يتفقهون على مذهب الإمام أبي حنيفة، رضي الله عنه، فسألت رجلاً منهم استعقلته عن بلادهم وحالهم، فقال: أما بلادنا فمن وراء القسطنطينية في مملكة أمةٍ من الإفرنج يقال لهم: (الهُنْكَر)[1]، ونحن مسلمون رعيةً

---

(١) معجم البلدان، ياقوت الحموي، مادة باشغرد.

لملكهم في طرف بلاده نحو ثلاثين قريةً، كل واحدة تكاد تكون بُليدةً، إلا أن ملك الهُنْكر لا يُمكّننا أن نعمل على شيء منها سوراً خوفاً من أن نعصى عليه، ونحن في وسط بلاد النصرانية، فشمالينا بلاد الصقالبة، وقبلينا بلاد البابا يعني روميا، والبابا رئيس الإفرنج، وهو عندهم نائب المسيح، كما هو أمير المؤمنين عند المسلمين، يُنفّذ أمره في جميع ما يتعلّق بالدين في جميعهم. قال: ولساننا لسان الإفرنج، وزيّنا زيّهم، ونخدم معهم في الجندية، ونغزو معهم كل طائفةٍ لأنهم لا يقاتلون إلا مخالفي الإسلام -فسألته عن سبب إسلامهم مع كونهم في وسط بلاد كفر؟ فقال: سمعت جماعةً من أسلافنا يتحدّثون أنه قدم إلى بلادنا منذ دهرٍ طويلٍ سبعة نفرٍ من المسلمين في بلاد البُلغار، وسكنوا بيننا وتلطّفوا في تعريفنا ما نحن عليه من الضلال وأرشدونا إلى الصواب من دين الإسلام، فهدانا الله، والحمد لله، فأسلمنا جميعاً، وشرح الله صدورنا للإيمان، ونحن نقدم إلى هذه البلاد ونتفقّه فإذا رجعنا إلى بلادنا أكرمنا أهلها وولّونا أمور دينهم[1].

(١) معجم البلدان، ياقوت الحموي، مادة باشغرد.

وإن ملوك المجر النصارى قد أصدروا ضدّ المسلمين قوانين تعسّفيةً، وكانت أوربا قد قامت بالحروب الصليبية على ديار الإسلام. وأول هؤلاء الملوك من المجر (لاديسلاوس) الذي تسلّم السلطان من ٤٧١ حتى ٤٨٩هـ حيث شنّت أوربا حربها الصليبية في آخر عام من حكمه، فأصدر تلك القوانين وتبعه الملوك الذين جاؤوا بعده حتى كانت أيام الملك شارل روبرت (٧٠٨-٧٤٣) حيث أرغم رعاياه جميعاً الذين لم يكونوا نصارى على أن يعتنقوا النصرانية أو يُغادروا البلاد.

كما وصل إلى المنطقة مسلمون من المغرب والأندلس، وعملوا على نشر الإسلام، وهذا ما ذكره أبو حامد الغرناطي في كتابه (تحفة الألباب ونخبة الآداب في القرن السادس الهجري).

إذن وصل الإسلام إلى البلقان قبل الفتح العثماني، وأشهر القبائل التي وصلت في تلك المرحلة قبائل البوشناق، ولكن لم يذكر ذلك المؤرخون، وذلك لأن المسلمين:

١- كانوا تحت سلطان غيرهم ويخضعون لضغطٍ شديدٍ.

٢- كانوا في عزلةٍ عن باقي المسلمين.

٣- لم تكن معلوماتهم الإسلامية كافيةً، إذ جاؤوا وهم حديثو

عهدٍ بالإسلام، لم يربوا التربيـة المطلوبة، ولم يعيشوا في ظل حكمٍ إسلاميٍ فيعرفـوا تطبيق المنهج الإسلامي هذا إضافة إلى العزلة وعـدم وجود موردٍ إسـلامي لهم لذا كانوا بعـيدين عن الساحة وعن محطّ النظر، ولكن ظهروا بعد الفتح العثماني.

كانت الإمبراطورية البـيزنطية صاحبة السـيطرة والنفوذ في شبه جزيرة البلقان، وقد مُنح الصرب عام ٥٩٣هـ (١١٩٦م) نوعاً من الحكم الذاتي في ظلّ هذه الإمبراطورية. وأخـذ الصرب يستولون على الأراضي من الأليريين (الألبان).

وأخـذت الإمبـراطورية البـيزنطيـة تميل نحـو الضعف بسـبب ضربات العثمانيين المسلمين واقـتطاعهم أجزاء بعد أجزاء من تلك الإمبـراطورية العـجوز. فـأسّس الصرب مملكةً لهم عـام ٧٣٢هـ (١٣٣١م) ودعـمتـهم الكنيسـة الأرثوذكـسيـة، وأعطتهم التـاج لتنصـيب الملك (دوشان) الذي اسـتغلّ قيـام الحرب الأهليـة في الدولة البيزنطية فأخذ يوسّع حدوده نحو الجنوب.

العثمانيون

١- عثمان:

ظهرت نواة الـدولة العثمـانية سنة ٦٨٨هـ (١٢٨٩م) عنـدما بدأ عثمان بن أرطغرل يسعى لتوسعة إمارته في الأرض التي أعطاها علاء الدين السلجوقي لأرطغرل لقاء مساعدته في قتال البيزنطيين، وكانت هذه الأرض على حدود الدولة البيـزنطية التي انحسر سلطانها كـثيراً في البر الآسيوي حتى لم يبق سـوى رقعةٍ من الأرض تُساير سواحل البحر الأسود الجنوبية الغربيـة، وسواحل بحر مرمرة، وسواحل بحر إيجه.

وتقع هذه الأرض بين (كوتاهية) و(بورصة) اليوم، وكان هدف هذا العطاء ليكون أرطغـرل وقبيـلته درءاً لعلاء الدين السـلجوقي يصدّ به عن إمارته غارات البيزنطيين. وتوفي أرطغرل سنة ٦٨٧هـ (١٢٨٨م) وخلفه ابنه عثمان برأي الأمير علاء الدين.

ضمّ عثمان القلعة السوداء (قره حـصار، أو أفيون قره حصار) سنة ٦٨٨هـ (١٢٨٩م) فسُرّ الأمير علاء الدين بذلك.

وقـتل المغـول الأمـيـر عـلاء الدين السـلجـوقي سنة ٦٩٩هـ (١٢٩٩م) ومن بعده ابنه، فـغدا عثـمان سيـد نفسـه في المنطقة،

وليس هناك من أحدٍ يرجع إليه، فأخذ يتوسّع، فهزم المغول، وفتح مدينة بورصة (بروسة) سنة ٧١٧هـ (١٣١٧م).

٢ - أورخان:

توفي عثمان سنة ٧٢٦هـ (١٣٢٥م) وخلفه ابنه أورخان فاتخذ من بورصة قاعدةً له، وأسس الجيش الانكشاري، ووسع إمارته حيث ضمّ إليها بعض الإمارات السلجوقية التي يتوفّى أمراؤها أو يختلف أهلها بعضهم مع بعضٍ، كما فتح مدناً وأجزاء من الدولة البيزنطية.

وفي عام ٧٥٦هـ (١٣٥٥م) طلب إمبراطور بيزنطة يوحنا الخامس (يوحنا باليوج) من أورخان مساعدته ضد ملك الصرب (اصطفان دوشان) الملقب بالقوي والذي تحالف مع البندقية بالهجوم على القسطنطينية، ووعده أن يزوّجه أخت زوجته، وهي ابنة الوصي على عرش بيزنطة (يوحنا كانتا كوزين)، فأرسل أورخان له الجند غير أن اصطفان دوشان قد أدركه الموت، وتوقّف الاستعداد، وعاد الجنود العثمانيون إلى بلادهم دون قتالٍ، وتزوّج أورخان ابنة الوصيّ.

شعر أورخان بضعف الدولة البيزنطية بعد أن طلبت مساعدته، ورأى أن المسلمين قد عجزوا عن فتح القسطنطينية من جهة

الشرق، لذا قرر الانتقال إلى الضفة الأوربية عن طريق مضيق الدردنيل، وإحاطة القسطنطينية وإعلان الجهاد، وأرسل ابنه الأكبر، وولي عهده (سليمان) ووزير الدولة الأول لدراسة الغزو والتخطيط له.

وفي سنة ٧٥٨هـ (١٣٥٧م) اجتاز سليمان مع أربعين رجلاً من أبطاله مضيق الدردنيل، ووصلوا إلى الضفة الغربية، واستولوا على الزوارق الرومية الراسية هناك، وعادوا بها إلى الضفة الشرقية، إذ لم يكن للعثمانيين أسطول بعد، حيث لا تزال دولتهم في بداية تأسيسها، وفي الضفة الشرقية أمر سليمان جنوده أن يركبوا في الزوارق حيث نقلهم إلى الشاطئ الأوربي فاحتلوا المدن والقلاع الواقعة على مضيق الدردنيل من الجنوب إلى الشمال، ومنها قلعة (جنا قلعة) المشهورة في مدينة غاليبولي، وقلعة (نزيب)، و(ابسالا) ثم (رودستو) على بحر مرمرة.

وتوفي ولي العهد سليمان عام ٧٦٠هـ (١٣٥٨م) نتيجة سقوطه عن جواده، وأصبح أخوه مراد ولياً للعهد. ثم توفي أورخان عام ٧٦١هـ (١٣٥٩م)، وتولّى مراد السلطنة باسم مراد الأول، وانتصر على أمراء الأناضول.

٣- مراد الأول:

فتح السلطان مراد الأول مدينة أدرنة في القسم الأوربي، وقد سلمها القائد الرومي بعد أن يئس من المقاومة، فنقل مراد الأول عاصمته إليها ليكون على مقربةٍ من الجهاد في أوربا، وليكون الهجوم على القسطنطينية من جهة الغرب أكثر قوةً. وبقيت هذه المدينة عاصمةً للعثمانيين حتى فُتحت القسطنطينية عام ٨٥٧هـ (١٤٥٣م). كما فتح مراد الأول مدينة (فيلبة) قاعدة الرومللي الشرقي (جنوبي بلغاريا اليوم). وأصبحت القسطنطينية محاطةً بالعثمانيين، فتقدّم إمبراطورها فدفع الجزية طواعيةً، وقلبه مليء بالأحقاد.

وهكذا أصبح العثمانيون في البقان فخاف أمراء البلقان ومن جاورهم على أنفسهم وعلى أملاكهم فكتبوا إلى ملوك أوربا الغربية وإلى البابا يستنجدون بهم ضد المسلمين حتى إمبراطور القسطنطينية ذهب إلى البابا، وركع أمامه، وقبّل يديه ورجليه، ورجاه الدعم رغم الخلاف المذهبي بينهما. فلبّى البابا النداء، وكتب إلى ملوك أوربا عامةً يطلب منهم الاستعداد للقيام بحربٍ صليبيةٍ جديدةٍ حفاظاً على النصرانية من التقدّم الإسلامي الجديد.

لم يتوقّع ملك الصرب (أوروك الخامس) الذي خلف (اصطفان دوشان) هذا الدعم السريع من البابا وملوك أوربا لذا فقد استنهض همّة الأمراء المجاورين له والذين أصبحوا على مقربةٍ من الخطر -على حد زعمهم- فاستجابوا له، وسار الجميع نحو أدرنة حاضرة العثمانيين مستغلّين دخول السلطان مراد الأول ببعض الحروب في آسيا الصغرى، غير أن الجيش العثماني قد أسرع للقاء أعدائه فاصطدم بهم على نهر مارتيزا[1] فهزمهم هزيمةً منكرةً، وولّوا الأدبار، واضطرت إمارة نصرانية صغيرة على بحر الأدرياتيك على ساحل كرواتيا اليوم، وهي إمارة (راجوزة) أن ترسل وفداً إلى السلطان، ويعقد معه صلحاً، تدفع الإمارة بموجبه جزيةً سنويةً.

وحاول ملك الصرب الجديد (لازار بلينا نوفتش) وأمر البلغار (سيسمان) الاتفاق على قتال العثمانيين، فوجدا نفسيهما ضعيفين رغم أنهما لم يخوضا سوى بعض المعارك الجانبية فاضطرا إلى دفع جزيةٍ سنويةٍ.

(١) نهر مارتيزا: نهر صغير ينبع من غربي بلغاريا، ويمر على أدرنة، ويصب في بحر إيجه.

وتأخّر الصـرب والبلغار في دفع الجزية، ويبـدو أنه كان على اتفاقٍ بينهـما في هذا التأخيـر، فتوجّهت الجـيوش العثمـانية إلى بلادهم ففـتحت بعض المدن الصـربية التي تقع اليـوم في جنوبي يوغوسلافيـا، كما حصرت عاصـمة البلغار صوفيا ودخلـتها عام ٧٨٤هـ (١٣٨٢م) بعد حصارٍ استـمرّ ثلاث سنوات، كما دخلت جـيوش السلطان مـراد الأول مـدينة (سلانيك) المـدينة اليونانيـة المشهورة والواقعة على بحر إيجه.

استغلّ الصـرب دخول العثمانيين بـعض المعارك في الأناضول فهـاجموا القـوات العثمـانية في جنوبي الصـرب، وحصلوا على بعض النجـاح سنة ٧٨٨هـ (١٣٨٦م)، وتأهّب أمـيـر الـبلغـار (سيسمان) للقيام بدوره أيضاً غيـر أن الجيوش العثمانية قد داهمته واحتلّت أجـزاءً من بلاده، ففرّ إلى الشـمال، واختـفى في مدينة (نيكوبلي) القـريبة من الحـدود الرومانيـة، وجمع فلـول جيـشه وهاجم بها العـثمانيين غير أنه هُزم، ووقع أسـيراً، لكن السلطان مراد الأول أحسن إليه فأبقاه أميراً على نصف بلاده، وضمّ الباقي إلى الدولة العثمانية كي لا تُغريه نفسه فيعاود الغارات.

ولما علم ملك الصرب (لازار) ما حدث لأمـير البلغار انسحب

بجيوشه نحـو الغرب للانضمام إلى الألبانيين ومحـاربة العثمانيين معهم غيـر أن الجيوش العثمانيـة أدركته قبل وصوله إلى مـبتغاه، وكانت أوربا تدعـمه، والتقت الجيوش الـعثمانية به وبمـن معه في وسط سهل قوصوى (كـوسوفا) سنة ٧٩١هـ[1] (١٣٨٩م). وكان القتـال سجالاً بين الطرفين إلا أن صهـر (لازار) قد بان له الحق، ورأى الفرق واضحـاً في أسلوب القتال حيث لا يحـمل المسلمون أي حقدٍ، على حين يظهر هذا الحقد جلياً عند الصرب فانحاز إلى جانب المسـلمين بفرقتـه المؤلفة من عـشرة آلاف مـقاتلٍ، فـانهزم الصرب، ووقع ملكهم (لازار) أسيراً بأيدي العـثمانيين وهو جريح فقتلوه لما فعل من أعمال خسيسةٍ بأسراه من المسلمين. وكذلك فقد استشهد السلطان مراد الأول، وهو يتفقّد نتائج المعركة، ويتفحّص الجثث إذ قـام إليه من بين الجـثث جندي صربي، وطعنه بـخنجرٍ فأرداه قتيلاً، وقتل الجند العثمانيون القاتل الصربي مباشرة.

طبعت هذه المعركة في نفوس الصرب وملأتها حقداً وشحنتها ضـغينةً إذ هُزمـوا فـيهـا وقُـتل ملكهم، وكانـت هذه المعركـة هي المحـفـوظة في ذاكـرتهم المدوّنة في تاريـخهـم. قُتـل ملكهم وهو

(١) تبدأ سنة ٧٩١هـ في ٣١ كانون الأول ١٣٨٨م.

الظالم المعتدي وبالقتال المبتدي، وشحنت نفوسهم حقداً على أرض المعركة فيجب أن تكون دائماً تحت سلطانهم، وعلى سكان المنطقة فيجب أن يكونوا عبيداً لهم أبداً، وعلى العثمانيين فيجب أن يبقوا أعداءً لهم على مدار التاريخ، وعلى زمن المعركة فيجب في كل ذكرى سنوية لها ارتكاب جرائم وإبادة ما أمكن من السكان، فياللعجب وياللأحقاد!!

٤- بايزيد:

تولّى السلطنة بعد أبيه مراد الأول، فعيّن اصطفان بن لازار ملكاً على الصرب، وكان يأخذ منه جزيةً سنويةً، كما يُقدّم اصطفان المقاتلين الصرب للسلطان حين الطلب، وحاصر بايزيد القسطنطينية سنة ٧٩٤هـ (١٣٩١م)، وفرض سيادته على الأفلاق (الجزء الجنوبي من رومانيا اليوم)، وأجبر حاكمها على دفع جزيةٍ سنويةٍ.

سار السلطان إلى بلاد البلغار، وجعلها ولايةً عثمانيةً، وقتل أميرها (سيسمان)، وأسلم ابن الأمير المقتول (سيسمان)، فجعله السلطان والياً على (صامسون) المدينة العثمانية على البحر الأسود.

ولما وصلت أخبار الانتصارات العثمانية هذه إلى ملك المجر استغاث بالبابا وبملوك أوربا، فأعلنها البابا حرباً صليبيةً، ودعا إليها الملوك والأمراء فاستجابوا له، وانطلقت جموعهم فاجتازت نهر الدانوب، وحاصرت مدينة (نيكوبلي) في شمالي بلغاريا، ووصل جيش السلطان بقيادة أمير الصرب اصطفان بن لازار، وكان اللقاء يوم ٢٣ ذي القعدة ٧٩٨ (٢٩ آب ١٣٩٦م)، وانتصر العثمانيون، وأسروا عدداً من الأمراء الأوربيين الذين فدوا أنفسهم بالمال.

وبعد هذا الانتصار عقد السلطان بايزيد صلحاً مع إمبراطور بيزنطة فكّ بموجبه الحصار عن القسطنطينية الذي استمرّ ما يقرب من أربع سنواتٍ وذلك مقابل عشرة آلاف دينارٍ ذهبيٍ، والسماح ببناء مسجد للمسلمين في القسطنطينية.

وضعفت السلطنة العثمانية بعد هجوم تيمورلنك عليها من جهة الشرق، وهزيمته للسلطان بايزيد في سهل أنقرة في ١٩ ذي الحجة عام ٨٠٤هـ (١٩ تموز ١٤٠٢م)، وأسره مع ابنه موسى، ثم وفاته في ١٥ شعبان عام ٨٠٥هـ، ثم اختلاف أبنائه من بعده على السلطنة.

٥- محمد بن بايزيد:

وعُرف باسم محمد جلبي، وانتصر على التتار، وتغلّب على إخوته فتفرّد بالسلطة عام ٨١٦هـ، وتوفي عام ٨٢٤هـ، وقد أوصى من بعده لابنه مراد.

٦- مراد الثاني:

حاصر القسطنطينية ثم رفع الحصار عنها، وسار لقتال ملك المجر فهزمه، وعقد معه معاهدةً تنازل فيها ملك المجر للسلطان عن أملاكه التي تقع على الضفة اليمنى لنهر الدانوب الذي سيكون حداً فاصلاً بين الطرفين.

ورأى أمير الصرب (جورج برنكوفتش) ذلك فعقد معاهدةً مع السلطان تقضي بدفع جزيةٍ سنويةٍ مقدارها خمسين ألف دوك ذهبي، وأن يُقدّم فرقةً من جنوده لمساعدة السلطان في حروبه، وأن يقطع علاقاته مع ملك المجر.

اعترف أمير الأفلاق بسيادة العثمانيين على بلاده عام ٨٣٦هـ (١٤٣٢م).

خضعت ألبانيا له بعد حروبٍ بسيطةٍ، واشترط أميرها عدم التعرّض لعقائد السكان، وسلّم أولاده الأربعة رهينةً للسلطان،

وعندما توفي هذا الأمير عام ٨٣٤هـ (١٤٣٠م) ضمّ السلطان أملاكه إليه.

رأى السلطان أن نفوذه قد استقرّ في البلقان من أوربا وأن سلطانه قد توطّد في الأناضول، وأن إمبراطور القسطنطينية لم يبق له سند، فإن سار إليه السلطان يمكنه فتح القسطنطينية، وقد طمح السلطان مراد الثاني أن يكون مغفوراً له كما حدّث بذلك رسول الله، ﷺ، ولكن ما إن بدأ يستعدّ لأداء مهمته حتى عاد حكام أوربا المتعاقدين معه على نقض العهد وإعلان العصيان.

حرّض ملك المجر أمير الأفلاق وأمير الصرب فثارا، فأدبهما السلطان، ثم سار إلى ملك المجر فهزمه، وجاس خلال دياره، وعاد بعددٍ عظيمٍ من الأسرى.

عاد أمير الصرب (جورج برنكوفتش) فأعلن العصيان، فسار إليه السلطان وفتح جزءاً من بلاده، وحاصر العاصمة بلغراد فغادرها أميرها متوجهاً إلى ملك المجر، ورفع السلطان الحصار عن بلغراد وأرسل جيشه لدخول ترانسلفانيا[1] من أراضي ملك المجر غير أن جيشه قد هُزم، وقُتل قائده مع عشرين ألفاً من

(١) تراسلفانيا: تقع اليوم في الجزء الغربي من دولة رومانيا.

جنده، وانسحب العثمانيون إلى ما بعد نهر الدانوب، فأرسل السلطان جيشاً آخر قوامه ثمانون ألفاً غير أنه هُزم أيضاً، وأُسر قائده عام ٨٤٥هـ (١٤٤١م)، وسار الجيش المجري بعد ذلك إلى بلاد الصرب فالتقى عام ٨٤٦هـ (١٤٤٢م) بالسلطان مراد الثاني نفسه على رأس جيش فنشبت بين الفريقين ثلاث معارك هُزم فيها السلطان كلها، واضطر إلى توقيع معاهدةٍ تنازل فيها السلطان عن الأفلاق للمجر، وردّ للصرب بعض المواقع، وقامت بين الطرفين هدنة مدتها عشر سنواتٍ.

شعر السلطان بالتعب فرأى أن يخلد إلى الراحة، فترك الحكم لابنه الثاني محمد[1] الذي لم يبلغ من العمر الرابعة عشرة، وسافر إلى غربي الأناضول في ولاية (آيدين) حيث الهدوء.

كان البابا يراقب الأحداث، وسُرّ سروراً بالغاً بهزيمة السلطان، وخاصةً أنه كان قد اشترك مع المجريين أعداد من الصليبيين من بولنديين وفرنسيين وألمان وبنادقة وجنويين إضافةً إلى الأفلاق والصرب وغيرهم، وأثارت البابا تلك المعاهدة التي وقّعها السلطان مع المجريين، وأنهت الحرب بين الطرفين لمدة عشر سنواتٍ لذا فقد أرسل البابا مندوباً من قبله، وهو (سيزاريني) إلى ملك المجر، وطلب منه

(١) الابن الأكبر اسمه علاء الدين، وقد توفي عام ٨٤٨هـ.

نقض العهد، وقال له: ليس في هذا النقض شيء من الناحية الدينية، فليس مع الكفار المسلمين نقض لعهدٍ أو حنث بقسمٍ.

تنادى ملوك النصارى لشنّ حملةٍ صليبيةٍ جديدةٍ، فجمعوا كيدهم وأتوا صفاً واحداً، وهاجموا بلاد البلغار، وساعدهم على ذلك أن السلطان كان في عزلته، وأن ولده الصغير لم يتمرّس بعد على القتال، ووصل الخبر إلى السلطان فغادر مكانه، واتجه إلى أوربا، فقاد الجيش وسار نحو الأعداء فوجدهم يحاصرون مدينة (فارنا) البلغارية الواقعة على ساحل البحر الأسود فنازلهم، فقُتل ملك المجر في ساحة المعركة، فاختلّ ترابط الأعداء فهاجم السلطان معسكرهم، واحتلّه، وقتل الكاردينال (سيزاريني) مندوب البابا، وتمّ النصر للمسلمين في ٢٨ رجب عام ٨٤٨هـ (١٨ كانون الأول ١٤٤٤م) وعاد السلطان فترك الأمر إلى ابنه محمد وعاد إلى استراحته.

رجع السلطان بعد ثلاثة أشهرٍ إلى أدرنة لتأديب بعض القادة، والسير لحرب اليونان، وكان إسكندر أحد أبناء أمير ألبانيا الذين عاشوا رهينةً عند السلطان عندما سلّم أبوه البلاد للسلطان، قد أظهر إسكندر الإسلام، ولما وجد السلطان مشغولاً بالحروب فرّ

إلى ألبانيا، وطرد العثمانيين منها، فسار إليه السلطان بقوةٍ كبيرةٍ وهزمه، وأخذ منه بعض المواقع عام ٨٥١هـ (١٤٤٧م)، ثم اضطرّ إلى تركه للتوجّه إلى مقابلة الجيش المجري الذي أراد أن يثأر لما أصابه في معركة (فارنا)، والتقى به في وادي كوسوفا فانتصر عليه نصراً مؤزراً عام ٨٥٢هـ (١٤٤٨م)، ثم عاد فاتجه إلى إسكندر، وحاصر مدينة (آق حصار)، ولم يتمكّن من فتحها لتعب جنده، فأراد أن يتفق مع إسكندر فيسلّمه حكم ألبانيا مقابل جزيةٍ سنويةٍ، غير أن إسكندر لم يقبل، واضطر السلطان أن يعود إلى (أدرنة) للاستعداد غير أن المنية وافته هناك في ٥ محرم ٨٥٥هـ (٨ شباط ١٤٥١م)، وتسلّم ابنه محمد السلطنة.

٧- محمد الفاتح:

أراد متابعة ما سعى له أبوه بالعمل لفتح القسطنطينية فأخذ يستعدّ، ورأى إمبراطور بيزنطة ما عزم عليه السلطان محمد الثاني فعرض عليه الجزية التي يريد فرفض السلطان، فأخذ الإمبراطور يستنجد بالدول النصرانية والبابا، وجاء الدعم ولكن لم يفد شيئاً.

بدأ الهجوم على القسطنطينية في ١٠ جمادى الأولى ٨٥٧هـ (١٨حزيران ١٤٥٣م)، وما كان الظهر حتى فتحت المدينة ودخلها

السلطان محمد، وصلّى في كنيسة (أيا صوفيا) الظهر، وقد تحوّلت إلى مسجدٍ.

أخذ السلطان محمد الفاتح الجزية من ملك بلاد المورة، ومن أمير الصرب، ودخل بلاد الصرب ولكن لم يتمكّن من دخول العاصمة بلغراد. ثم دخلها الصدر الأعظم محمود باشا سنة ٨٦٢هـ (١٤٥٧م).

ثم فتح السلطان محمد الفاتح بلاد المورة سنة ٨٦٣هـ (١٤٥٨م) وفرّ ملكها إلى إيطاليا، ودخل الجزر التي في بحر إيجه قرب مضيق الدردنيل.

وعقد صلحاً مع أمير ألبانيا إسكندر.

توجّه السلطان سرّاً إلى الأناضول فدخل ميناء (اماستريس) الذي يتبع جنوة، وأكثر سكانه من التجار، كما دخل ميناء (سينوب) على البحر الأسود، ومملكة (طرابزون) على البحر الأسود، وكانت تتبع القسطنطينية.

سار السلطان إلى أوربا لمحاربة أمير الأفلاق لظلمه وتعدّياته على العثمانيين، فطلب الأمير صلحاً مقابل جزيةٍ سنويةٍ قدرها عشرة آلاف دوك، فوافق السلطان غير أن الأمير لم يطلب هذا

الصلح إلا لتُتاح له الفرصة ليتفق مع ملك المجر لمحاربة العثمانيين، فلما اتفقا، وعلم السلطان أرسل إليه رجلين يستوضح الخبر فقتلهما أمير الأفلاق، وسار مُغيراً على أملاك الدولة العثمانية في بلغاريا، فأفسد فيها، وساق الأسرى، فأرسل إليه السلطان وفداً يطلب منه أن يُعيد الأسرى، ويبقى على صلحه، فمثّل بأعضاء الوفد شرّ تمثيلٍ، فسار إليه السلطان، ففرّ أمير الأفلاق إلى ملك المجر، فضمّ السلطان الأفلاق إلى العثمانيين، وعين أخا أمير الأفلاق السابق والياً عليها من قبله.

امتنع أمير البوسنة عن دفع الخراج فسار إليه السلطان، وانتصر عليه، وضمّ البوسنة للدولة العثمانية، وحاول ملك المجر مساعدة أمير البوسنة غير أنه هُزم، وأعلن كثير من البوشناق إسلامهم.

واصطدم السلطان مع البنادقة الذين يملكون بعض المواقع في بلاد المورة وجزراً كثيرةً في بحر إيجه، وقد هاجم البنادقة بعض المراكز العثمانية ودخلوها فسار إليهم السلطان ففرّوا من مواقعهم ودخلها السلطان، وبعد هدنة سنةٍ عاد البنادقة لغيّهم إذ أرادوا استعادة ما فقدوه وبدؤوا يُغيرون على أملاك العثمانيين فكانت النتيجة أن فقدوا بعض مواقعهم المهمة.

بدأ البابا يدعو إلى شنّ حربٍ صليبيةٍ فشجّع إسكندر بك أمير ألبانيا على نقض عهده مع السلطان، ودعا ملوك أوربا وأمراءها لمساندته، غير أن البابا قد توفي ولم تقم حرب صليبية. ونقض إسكندر بك العهد، وحارب العثمانيين، وكانت الحرب سجالاً بين الطرفين، وتوفي إسكندر بك سنة ٨٧٠هـ (١٤٦٥م).

عرض السلطان عام ٨٧٨هـ (١٤٧٣م) على أمير البغدان اصطفان الرابع الجزية حتى لا يُحاربه فلم يقبل الأمير، فأرسل إليه جيشاً وانتصر عليه بعد حروب عنيفة، ولكن لم يستطع فتح هذا الإقليم، فعزم السلطان على دخول القِرم للإفادة من فرسانها في قتال البغدان، وتمكّن من احتلال أملاك الجنويين الممتدة على شواطئ شبه جزيرة القرم، ولم يقاوم التتار سكان القرم العثمانيين بل دفعوا لهم مبلغاً من المال سنوياً وأقلعت السفن الحربية العثمانية من القرم إلى مصب نهر الدانوب فدخلته، وكان السلطان يدخل بلاد البغدان عن طريق البر، فانهزم اصطفان الرابع وتبعه السلطان في طريق مجهولة فانقضّ عليه اصطفان الرابع فانهزم السلطان سنة ٨٨١هـ (١٤٧٦م)، وارتفع اسم اصطفان الرابع.

وصالح السلطان البنادقة، وانهزم أمام المجر عندما سار لفتح

ترانسلفانيا، ولكنه فتح في البحر الجزر التي بين اليونان وإيطاليا، كما فتح مدينة (أوترانت) في جنوبي شبه جزيرة إيطاليا عام ٨٨٥هـ (١٤٨٠م)، وحاصر جزيرة (رودوس) ولكن لم يتمكّن من فتحها.

وتوفي السلطان محمد الفاتح يوم ٤ ربيع الأول عام ٨٨٦هـ (٣ حزيران ١٤٨١م) عن عمر يُناهز الخامسة والخمسين بعد أن حكم إحدى وثلاثين سنةً.

٨- بايزيد الثاني:

أكبر أولاد السلطان محمد الفاتح، وتسلّم السلطنة بعده.

فشل العثمانيون في فتح بلغراد، وتوطّدت الصلات مع بولونيا عام ٨٩٥هـ (١٤٨٩م)، ثم حدث الخلاف بينهما إذ كان كل من الجانبين يدّعي الحماية على البغدان، وقد اعترف أمير البغدان بالحماية العثمانية، وقاتل معهم البولونيين.

بدأت الدول تتقرّب من الدولة العثمانية وتخطب ودّها عندما ظهرت قوتها، وتطلب منها عقد الأحلاف للإفادة منها في قتال خصومها، وخاصةً الإمارات الإيطالية، وقد حارب العثمانيون دولة البندقية، وانتصروا عليها، فاستنجدت بالبابا وملك فرنسا، وكانت حرباً صليبية.

وظهرت دولة روسيا عام ٨٨٦هـ (١٤٨١م)، ووصل أول سفير روسي لاستانبول يحمل الهدايا عام ٨٩٧هـ (١٤٩١م)، ووصل السفير الثاني عام ٩٠١هـ (١٤٩٥م).

وتوفي بايزيد الثاني سنة ٩١٨هـ (١٥١٢م)، وخلفه ابنه سليم.

٩- سليم الأول:

رأى أن أوربا النصرانية لا يمكن مواجهتها إلا باجتماع المسلمين فاتجه إلى المشرق وقاتل الصفويين، وقضى على دولة المماليك، وتسلّم الخلافة، وأخذ جزيرة العرب، ووقف في وجه المستعمرين البرتغاليين أصحاب النوايا الحاقدة تجاه الأماكن المقدسة الإسلامية، وتوفي سليم الأول في ٩ شوال ٩٢٦هـ (الأول من تشرين الثاني ١٥٢٠م).

١٠- سليمان القانوني:

تسلّم الخلافة بعد أبيه، وأرسل رسولاً إلى ملك المجر يطالبه بدفع الجزية، فقتل الملك الرسول، وعندما وصل الخبر إلى الخليفة جمع جيشه وسار على رأسه لقتال المجر، ودخل بلغراد بعد حصار قصير، وغادرتها الجنود المجرية.

فتح الخليفة جزيرة رودوس في ٢ صفر ٩٢٩هـ (٢٢ كانون الأول ١٥٢٢م).

أصبحت شبه جزيرة القرم ولاية عثمانية. كما استولى على عاصمة الأفلاق.

تحالف مع ملك فرنسا ضد المجر، وانتصر على المجر، ودخل عاصمتهم (بودا)، وقتل ملكهم لويس. وحاصر عاصمة النمسا فيينا غير أنه لم يستطع دخولها.

هاج الرأي العام النصراني في أوربا ضد فرنسا لتحالفها مع العثمانيين المسلمين الذين يقاتلون دولة النمسا النصرانية، فخضع ملك فرنسا (فرانسوا الأول) للرأي العام الصليبي، وعادت الحرب بين الدولة العثمانية والنمسا، وهُزمت النمسا.

هاجمت الجيوش النمساوية المجر لإنهاء الحماية العثمانية، واحتلت مدينة (بست)، ومع وصول الخبر إلى الخليفة اتجه فوراً عام ٩٤٧هـ (١٥٤٠م) على رأس جيش ففرّ النمساويون، وغدت المجر ولايةً عثمانية.

وعُقدت معاهدة بين الدولة العثمانية والنمسا سنة ٩٥٤هـ (١٥٤٧م) لمدة خمس سنوات تدفع بموجبها النمسا جزية سنوية لقاء ما بقي تحت يدها من المجر.

تنازلت (إيزابيلا) أرملة جان زابولي عن ترانسلفانيا إلى

فرديناند الأمير النمساوي مخالفةً بذلك شروط الهدنة الموقعة بين العثمانيين والنمساويين، فأرسل الخليفة جيوشه التي احتلت ترانسلفانيا بعد مقاومة وذلك عام ٩٥٧هـ (١٥٥٠م) كما انتصرت على النمساويين في عدة مواقع في العام التالي.

ومات ملك فرنسا (فرانسوا الأول) وخلفه ابنه هنري الثاني فجدّد المعاهدة مع العثمانيين عام ٩٥٩هـ (١٥٥٢م)، وأغارت بعدها الدولتان على صقلية وجنوبي إيطاليا، وفتحت أساطيلهما جزيرة كورسيكا، ثم اختلف القائدان، فتركا الجزيرة، وعاد كل منهما إلى بلده.

وحاصر العثمانيون جزيرة مالطة عام ٩٧١هـ (١٥٦٣م) مدة أربعة أشهر، ولم يتمكّنوا من فتحها.

وعاد الخليفة للقتال في بلاد المجر عام ٩٧٣هـ (١٥٦٥م) نتيجة الخلاف بين اصطفان زابولي ملك المجر ومكسمليان ملك النمسا الذي خلف أباه فرديناند.

وتوفي الخليفة سليمان القانوني أثناء حصاره لإحدى القلاع هناك عام ٩٧٤هـ (١٥٦٦م)، وكانت الخلافة العثمانية قد بلغت الأوج في عهد سليمان القانوني.

الإسلام في البلقان

وصل الإسلام إلى البلقان في وقت مبكر نسبياً وذلك في القرن الرابع الهجري، وكان أول من وصل إلى المنطقة من المسلمين قبائل البوشناق الذي جاؤوا من منطقة البُلغار، وكان أهلها قد أسلموا على يد الوفد الذي أرسله إليهم الخليفة العباسي المقتدر بالله -كما سبق أن ذكرنا-.

وصلت قبائل البوشناق إلى البلقان وهي حديثة العهد بالإسلام لم تُمارسه بشكل عملي، ولم تدعُ له، ولم تتحمس له، كما لم يكن الارتباط فيما بينها على أساسه، لذا يمكن أن نقول: إنها كانت تنتمي للإسلام انتماءً فقط، لذا لم يبدُ أثره على أفرادها وتجمّعاتها، بل لم يلاحظ أثره المؤرخون فما انتبهوا إلى إسلام هذه القبائل، وإنما عدّوها كبقية القبائل الوثنية الأخرى أو النصرانية التي وجدت في هذه المرحلة.

ووصل أفراد مسلمون إلى البلقان قادمين من المغرب ومن الأندلس كانوا تجاراً لم ينصرفوا إلى الدعوة، ولقلة عددهم لم يكونوا موضع اهتمام، كما لم يتركوا أثراً بارزاً في تلك البيئة التي تتغلغل فيها في تلك الآونة النصرانية الممزوجة بالوثنية الأمر الذي

لم يكن فيه جدة كما لم يكن لكلمة الدين ذلك الوقع كما لو كانت مبادئ الدين السامية ظاهرة على الأفراد.

ثم وصل العثمانيون في هذه المرحلة وذلك قبل فتح القسطنطينية ودخول العثمانيين لها، ولكن لم يكن ذلك الوصول سوى وجود عسكري صرف وانتصار في المعارك، ودحر للأعداء، أو وجود سياسي بحت كعقد معاهدات وإجراء تحالفات وتوقيع مصالحات لذا لم يكن للدعوة أثر ولا لتغيّر المجتمع ظهور بل وحتى لم يُشجّع قبائل البوشناق لإظهار الإسلام والمناداة به. وبقيت الارتباطات على أسس عنصرية والمصالح حسب المصالح السياسية.

ولما كان النفوذ فيما مضى للدولة البيزنطية والدولة لا يزال لها وجود في القسطنطينية لذا فالخوف منها لا يزال قائماً والارتباط بها لا يزال موجوداً في النفوس. ولما كانت بيزنطة تدين بالأرثوذكسية لذا فإن اعتناق غيرها أمر يُثير الرعب بل إن الكاثوليكية منتشرة في شمال البلقان ولولا وجود دول قائمة تدين بها لما أقدم عليها أحد، مع العلم أن للبابا مكانته وللفاتيكان أثرها ومع ذلك فالهيبة ضعيفة. فكيف وأن بيزنطة حاجز بين المسلمين والبلقان.

وتداعت أركان بيزنطة، وانهارت القسطنطينية واستسلمت للمسلمين وفتحت أبوابها لهم، وامّحت بيزنطة فلم يعد هناك خوف منها، كما لم يعد هناك حامٍ للأرثوذكسية، وإن احتلت موسكو هذا الاسم إلا أن موسكو لا تزال ضعيفة وسلطانها قليل النفوذ.

وفي الوقت نفسه فإن الإسلام أصبح له ظهر يستند عليه والدولة العثمانية التي تحميه هي القاهرة لغيرها، وهي المسيطرة في المنطقة، فانفتحت القلوب للإسلام، وانطلقت العقول تبحث وتسأل، وتُقارن وتُميز فاتجهت بفطرتها نحوه وقد رأت أنه ينسجم مع تلك الفطرة، ويتفق مع العقل السليم.

انتبهت قبائل البوشناق إلى نفسها، وعرفت أن الإسلام هو الدين الذي تنتمي إليه، ووجدت فيه ما تصبو إليه النفس، ورأت فيه ضالتها، فتمسّكت به والتزمت، وأعلنت للأشهاد أنها مسلمة، وحافظت على عقيدتها حتى عُرفت بها، وغدت غالبيتها مسلمة بل وأخذت تدعو إلى ذلك حسب طاقاتها وعلمها. بل اقترنت كلمة البوشناق بالإسلام في منطقة البلقان.

ورأت القبائل الأليرية (الألبان) النصرانية اسماً، والتي تسمى

كنيستها بالبوغوميلية، والتي تُحافظ على بعض الأصول النصرانية قبل أن يدخل التحريف إليها، ووجدت أن هذه الأصول تلتقي مع الإسلام فأسلمت، وأخذت تتردد فيما كان يحاول الكاثوليك إدخاله إلى النصرانية وبطلانه ورفضها ذلك، وإصرار الكاثوليك على ما عزموا عليه، وإقحام ما رأته عقولهم القاصرة في الدين.

ومن جانب ثانٍ فقد عمل الأرثوذكس ما عمله الكاثوليك نفسه، إذ جعلوا ما اعتادوا عليه وما تعارفوا عليه من الدين رغم أنها أمور ورثوها من الوثنية التي كانوا يدينون بها قبل أن يدخلوا في النصرانية. وهكذا غدت النصرانية التي يدين بها النصارى وثنية تحمل اسم النصرانية. ولما رفض البوغوميل ما كان يراد فرضه عليهم لذا فقد تعرّضوا إلى اضطهاد الكاثوليك في الشمال وإلى اضطهاد الأرثوذكس في الجنوب، وبقوا محافظين على ما نشؤوا عليه وما ورثوه، فلما جاء الإسلام وجدوا ما ورثوه موافقاً لتعاليم الإسلام فأقبلوا نحو الإسلام، وأصبحت أغلبيتهم من أتباعه، والتزموا به وبذلوا جهدهم للتمسّك به والمحافظة عليه، ومساعدة إخوانهم من أبنائه.

وإضافة إلى هاتين المجموعتين الأساسيتين (البوشناق والألبان)

فقـد اعتنق الإسـلام أعداد ليست كثيرةً من مـختلف العنـاصر الأخرى سواء أكانـوا من الصرب أم من الكروات أم من اليونانيين أم من بقية المجموعات.

كـما أقـام في البلقـان مـجمـوعـات من الأتراك المسلمين في مختلف الأقـاليم بحكم العمل سواء أكان فـي الإدارة أم في بقية المهن، وربما صفا الجو لبعضهم فأقام.

وهكذا فالمسلمون في البلقان ينتمون بصفة رئيسية إلى البوشناق في البـوسنة وإلى الألبـان في ألبـانيـا، وهم فـي هاتين الدولتين يشكلون غالبية السكان، ثم إلى التركية، ثم إلى باقي المجموعات البشرية بنسبٍ قليلةٍ تتفاوت بين مجموعةٍ وأخرى.

ولما كان أكثـر سكان كوسوفا (قوصـوى) من الألبان، لذا كان لابد من الحديث عن هذه المجموعة.

الألبان

قلنا إن الألبـان يعودون بالأصل إلـى العناصر الأليـرية، وهي أول العناصر التي نزلت شبه جزيرة البلقـان، وقد جاءت من جهة الغـرب عن طريق البـحر الأدرياتيكـي، لذا فإنهـا قـد انتشـرت بالجـهات الغـربيـة وامتـدت إلى مناطق أخـرى. ووصلت إليهـا النصرانية بشيء من أصولها الأولى تقريباً قبل أن يصيبها التحريف وقد احـتفظت بهذه الأصـول. ولما دخلت الوثنية إلى النصـرانية وانقسـمت إلى طوائف، وصلت الكاثوليكيـة إلى بلاد الألبان من جهة الشمال، كما وصلت الأرثوذكسية من جهة الجنوب، غير أن الألبان قـد حافظ مـعظمهم على مـا نشؤوا عليـه، وحاولت كل طائفـة من الطائفـتين الوافـدتين سواء الـكاثوليك أم الأرثوذكس إخضاع الألبان إلى مـذهبها لكنهما فشلتا حـيث التجأ الألبان إلى الجبال وحافظوا على ما ورثوه، فنشـأت كنيسة خاصة بهم عرفت باسم «البوغوميل».

خضع الألبان للدولة البيزنطيـة وبقوا تحت سلطانها حتى زالت بيزنطة. ثم خضعوا للدولة العثمانية وأبدوا بعض المقاومة في بداية الأمر كباقي سكان المنطقة، ثم اعتنقوا الإسلام، وعملوا تحت ظل

العثمانيين، وجاهدوا معهم، وكانوا مقاتلين أكفاء، ومنهم قادة مشهورون.

واللغة الألبانية إحدى اللهجات الأليرية، وهي إحدى اللغات الآرية، وقد أثّرت اللغة التركية فيها كثيراً، وتركت فيها أكثر من ثلاثة آلاف كلمة في القاموس الألباني، كما كان للغة اليونانية بعض الأثر. وكانت اللغة الألبانية تكتب بالحروف العربية حتى أواخر القرن الماضي، ولكن اتفق على توحيد الأبجدية وكتابتها باللاتينية[١].

كانت الأراضي التي يقيم عليها الألبان أيام الدولة العثمانية أربع مقاطعات هي:

١- شكودر: وهي مدينة تقع في شمالي دولة ألبانيا الحالية.

٢- كوسوفا: الإقليم المعروف، وهو اليوم ضمن صربيا.

٣- ماناستير: وكانت تضم مدينة سكوبيا عاصمة مقاطعة مقدونيا الحالية.

٤- يانينة: وهي في شمالي اليونان اليوم، وتشمل إقليم شمريا.

---

(١) الألبان في بلاد البلقان. د. حمزة سعد زوبع.

وتبلغ مساحة هذه المقاطعات ما يقرب من مائة ألف كيلومتر مربع.

فلما أخذت الدولة العثمانية تميل إلى الضعف أخذت المحنة تحلّ بالمسلمين في كل بقعة يقيمون بها في بلاد البلقان.

محنة المسلمين في البلقان

(١)

كثيراً ما تحلّ محن بشعوب على أيدي شعوبٍ أخرى أكثر منها قوةً، أو عـدداً، أو استـعداداً رغـبة في سـيطرة أو نهب ثروة أو انتقـاماً لحادث، أو إذلالاً، أو حقـداً على مبدأ أو عقـيدة، وربما تنتهي الرغبة في السيطرة ويزول الطمع في نهب الثروة، وينقضي عهد الانتقـام وتمضي مرحلة التشفي وتتبدّل مـحبة الإذلال، وقد يتفق شـعبان بعد طول خـلاف، وتلتقي أمتان بعـد مرحلة نزاع، وتجتـمع دولتان بعد مـدة من صراع، غـير أن أحقـاد الكفر على الإسلام لم تهدأ منذ أن وجد الإسلام إلى هذه الساعة التي نُسطّر فيها هذه العبارات بل إلى آخر الأيام وحتى يرث الله الأرض ومن عليهـا، ولم تعرف مدة من فتـور فيمـا مضى ولا هدنة في وقت انقضى، فسيوف الكفار مصلتة دائماً، ورماحهم مشرعة وسهامهم مـوجّـهـة أبداً على الإسـلام وذلك لأنه يقف أمـام أطمـاعـهم العـدوانيـة ويحول دون تحـقـيق شهـواتهم الدنيئـة، ويمنع ظلم الأقوياء، وجشع الأثـرياء، وفي الوقت نفسه فيـه قوة ذاتية تردع من يريد أن يتخطى الحدود التي رسمها والنهج الذي يسير عليه.

ويلتـقي المخالفـون صفـاً واحـداً، ويشكلون جبـهة واحـدة، ويرسمون سـياسة واحدة، ويُواجهون الإسـلام. يلتقي من يُقدس البشر، ومن يعبد البقر، ومن يسجد للحجر، ومن يُؤله الشجر لا فـرق بينهم بل تفـضل الأمم التي تدعي عبـادة الخـالق من يعبـد المخلوق من تلك الجماعات على الذي يعبد رب العباد وينتمي إلى الإسـلام، وكم وقفت الأمم النصـرانية إلى جـانب عبـدة البقـر والوثنيـات الأخـرى ضد المسلمين، وأمـدتهم بالطـاقات كلهـا، ودعمتهم بكل ما يريدون وساعدتهم عليهم.

وما أن يشعر المخالفون بضـعف المسلمين حتى تظهر الأحقاد، وتبدو الـضغائن، ويـتحرك من لم تـكن نفســه تُحدثه بالحـركة، ويُشجع بعـضهم بعضـاً، ويدعم بعضـهم بعضاً، ويؤيد بعـضهم بعضـاً، ويُهاجـمون المسلمين بذرائع شتـى، وأنواع من الحجج، ومطالب باطلة، وتبـدأ وسائل الإعلام بأنواعـها المختلفـة بحرب دعائية، وهجمات إعلامية.

ولما كان المخالـفون يعرفون من تاريخـهم الطويلة ولقاءاتهم مع المسلمين أن في الإسـلام قوة ذاتية يصـعب التغلب عليـها مهـما كانت القـوة التي أمامهـا ضخمـة. وتنشأ تلك القـوة الذاتية من العاطفة الإسلامية، وذلك عندما يكون القتال في سبيل الله، وهو

ما يعرف بالجهاد، أي قتال الذين يقفون في وجه الدعوة إلى الله ونشر الإسلام، أو التصدّي للجيوش المسلمة المنطلقة لقتال الكفار، ويُسمي المخالفون ذلك «الحرب الدينية». فإذا أعلن المسلمون الجهاد اشتدّ ساعدهم، وزادت عزيمتهم، وانطلقوا لا يبالون بل يطلبون الشهادة في سبيل الله، وارتفعت معنوياتهم، وتقدموا يدحرون من أمامهم، ويدوسون من يقف في وجههم، وربما تزداد قوة المسلمين فيما إذا حدث اعتداء عليهم حيث يكون الجهاد عندها فرض عين، وعلى كل مسلم أن يهبّ في سبيل الله للدفاع عن ديار الإسلام وعقيدة أهلها. ولهذا كان المخالفون يحرصون أشدّ الحرص ألا يكون الصراع دينياً -حسب اصطلاحاتهم- خوفاً من إعلان الجهاد الذي يشحن النفوس قوةً وعزيمةً، ويرفع المعنويات، ويُرهب الأعداء، ويحاولون أن يخلعوا على ذاك الخلاف الجانب العنصري، فيقولون: الصراع بين البوشناق والصرب، أو بين الألبان والصرب و. . . بين الكروات والبوشناق، أو بين الألبان والكروات حتى لا تثار العاطفة الدينية ويكون القتال نوعاً من الجهاد، وربما جعلوا الصراع على الأرض ومهما بالغوا في ذلك فهو أفضل عندهم من إعلان الجهاد.

ولإثارة الصرب لأنفسهم قالوا: كل أرض دخلها الصرب إنما وهبهم إياها الرب والتخلي عنها إثم، وطرحوا ذلك على شعبهم.

ضعفت الدولة العثمانية لأسباب شتى، وشعرت دول أوربا بذلك، فتداعت والتقت بعضها مع بعض دولها المتناحرة: بريطانيا، فرنسا، النمسا، ألمانيا، إيطاليا، ومذاهبها المتنافرة: الكاثوليك، والأرثوذكس، والبروتستانت، وشعوبها المختلفة الفرنجة، الجرمان، الطليان، والسلاف. . . التقوا جمعياً ضد العثمانيين على حين كان المسلمون موزعين لا يسندون الدولة العثمانية بل أخذت العصبية الجاهلية تظهر، وتحركت الطوائف، ورفع أهل الذمة رأسهم، وهذا ما زاد من ضعف الدولة التي كانت أقوى الدول الإسلامية يومذاك، والتي تقف في وجه الدول الأوربية.

١١- سليم الثاني:

كان ضعيفاً، تولى الخلافة بعد أبيه سليمان القانوني.

عقدت الدولة العثمانية صلحاً مع النمسا عام ٩٧٦هـ (١٥٦٨م) اعترفت فيه بأملاك النمسا في المجر على أن تدفع

النمسا مقابل ذلك الجزية السنوية المقررة، ومقابل اعترافها أيضاً بتبعية أمراء ترانسلفانيا، والأفلاق، والبغدان للدولة العثمانية.

جددت الدولة العثمانية المعاهدة مع بولونيا مع اعتراف العثمانيين بالتحالف الذي تم بين ملك بولونيا وأمير البغدان.

وجُددت المعاهدة مع فرنسا عام ٩٧٧هـ (١٥٦٩م)، وأيّد الخليفة الامتيازات القنصلية، فبدأت فرنسا ترسل إرساليات تنصيرية كاثوليكية إلى رعاياها في الدولة العثمانية، وبدأ العمل من الداخل ضد العثمانيين، وتربية النصارى على الارتباط بفرنسا.

دخلت الدولة العثمانية جزيرة قبرص عام ٩٧٨هـ (١٥٧٠م) وكانت تتبع إمارة البندقية من قبل، وأصبحت تتبع الدولة العثمانية.

احتلت إسبانيا تونس وخرج منها العثمانيون عام ٩٨٠هـ (١٥٧٢م).

حدثّ تمرّد في إمارة البغدان، ولكن قضي عليه عام ٩٨١هـ (١٥٧٣م).

١٢- مراد الثالث:

تولّى الخلافة بعد وفاة أبيه سليم الثاني عام ٩٨٢هـ (١٥٧٤م).

أصبحت بولونيا تحت الحماية العثمانية عام ٩٨٣هـ (١٥٧٥م).

جدّدت الدولة العثمانية للدول الأوربية امتيازاتها، وهي فرنسا والبندقية، وكانت سفن الدول الأوربية تدخل الموانئ العثمانية تحت ظلّ العلم الفرنسي عدا البندقية. ثم حصلت بريطانيا على الامتيازات.

هُزمت الدولة العثمانية أمام النمسا التي دعمت المجر، واحتلّت عدة قلاع.

أعلن أمراء الأفلاق والبغدان وترانسلفانيا التمرّد وانضمّوا إلى النمسا التي تُقاتل العثمانيين فسار إليهم سنان باشا الصدر الأعظم عام ١٠٠٣هـ (١٥٩٤م) ودخل بخارست عاصمة الأفلاق، إلا أن أمير الأفلاق قام برد فعل، وانتصر على العثمانيين الذين انسحبوا إلى ما بعد نهر الدانوب، وخسروا عدة مدن.

١٣- محمد الثالث:

تولّى الخلافة عام ١٠٠٣هـ (١٥٩٤م) بعد وفاة أبيه.

هُزمت الجيوش العثمانية أمام أمير الأفلاق ميخائيل الذي دعمته النمسا، فضمّ إليه البغدان وترانسلفانيا. فقاد الخليفة الجيوش بنفسه فهزم جيوش المجر والنمسا عام ١٠٠٥هـ (١٥٩٦م) واستمرت المعارك بين الطرفين سجالاً.

١٤- أحمد الأول:

تولّى الخلافة بعد وفاة والده عام ١٠١٢هـ (١٦٠٣م).

عقدت الدولة العثمانية صلحاً مع النمسا عام ١٠١٥هـ (١٦٠٦م)، تخلّصت فيه النمسا من الجزية، وبقيت المجر تتبع الدولة العثمانية.

جرت حروب بحرية بين السفن العثمانية وسفن إسبانيا، ورهبان مالطة، والإمارات الإيطالية، وغالباً ما كانت الهزيمة تلحق بالعثمانيين.

وجدّدت الدولة العثمانية امتيازات فرنسا وبريطانيا كما حصلت هولندا على امتيازات مثل سابقتيها.

جدّدت الدولة العثمانية الاتفاقية مع بولونيا.

١٥- مصطفى الأول:

تولّى الخلافة بعد وفاة أخيه أحمد الأول عام ١٠٢٦هـ (١٦١٧م)، وبقي ثلاثة أشهر.

١٦- عثمان الثاني:

تسلّم الخلافة بعد عزل عمه مصطفى الأول.

أعلن الحرب على بولونيا لتدخلها بشؤون إمارة البغدان عام ١٠٢٩هـ (١٦٢٠م)، ثم عُزل، وقُتل، وأُعيد عمه مصطفى الأول. ثم عُزل.

١٧- مراد الرابع:

تولّى الخلافة بعد عزل عمه عام ١٠٣٢هـ (١٦٢٣م)، وهو ابن أحمد الأول، وتوفي عام ١٠٤٩هـ (١٦٣٩م).

١٨- إبراهيم الأول بن أحمد الأول:

تولّى بعد وفاة أخيه مراد الرابع، وتوفي عام ١٠٥٨هـ (١٦٤٨م).

١٩- محمد الرابع:

تولّى بعد وفاة أبيه.

انتصرت البندقية على أسطول عثماني، واحتلّت جزيرتين عند مدخل مضيق الدردنيل تتحكّمان به وتحميانه فتحكّمت البندقية بهذا المضيق، وحالت دون وصول المواد الغذائية إلى استانبول عن طريق هذا المدخل، فارتفعت الأسعار، ولم تسترد الدولة العثمانية هاتين الجزيرتين إلا بعد مرور وقت.

وقعت الحرب بين السويد وبولونيا فطلب ملك السويد من العثمانيين المساعدة على أن تكون بولونيا تحت الحماية العثمانية، ولكن رفض الصدر الأعظم ذلك، واتفق أمير ترانسلفانيا مع أميري الأفلاق والبغدان التفاهم مع السويد ومحاربة بولونيا، فعزلت الدولة العثمانية هؤلاء الأمراء وعيّنت غيرهم في أماكنهم، فعصى أمير ترانسلفانيا الأمر، وحارب العثمانيين وانتصر عليهم، فسار إليه الصدر الأعظم محمد كوبريلي وهزمه ففرّ من البلاد، ولم يلبث أن عصى أمير الأفلاق بعد عودة الجيوش العثمانية إلى استانبول، وأعلن التمرّد، فرجع الصدر الأعظم إليه وأخضع الثائرين.

دعمت فرنسا سراً البندقية في جزيرة كريت فضعفت العلاقات بين الدولة العثمانية وفرنسا، ثم توترت فدعمت فرنسا البندقية علناً في كريت وأنجدتها بقوة.

توفي الصدر الأعظم محمد كوبريلي عام ١٠٧٢هـ (١٦٦١م)، وخلفه ابنه أحمد كوبريلي وقد رفض الصلح مع النمسا والبندقية، وسار على رأس جيشٍ لقتال النمسا وتمكّن عام ١٠٧٤هـ (١٦٦٣م) من فتح قلعة (نوهزل) أعظم قلعة شرق العاصمة فيينا، ثم دخل مورافيا وسيليزيا فأرعب أوربا، واضطر

ملك النمسا ليوبولد أن يطلب من البابا ويرجوه للعمل على مساعدة فرنسا، فدعمته فرنسا بقوة ووقعت معارك بين المسلمين والنصارى، ولم يحصل أحد الطرفين على النصر، ثم وقعت معاهدة صلح بين الطرفين، وقُسمت المجر بين الدولة العثمانية والنمسا، وتوقّفت الحرب على هذه الجبهة. ولكن فرنسا تابعت القتال في البحر المتوسط.

حاولت فرنسا التقرّب من الدولة العثمانية وتجديد الامتيازات غير أن الصدر الأعظم رفض ذلك، ثم عملت فرنسا بالتهديد، ثم صفا الجو بين الدولتين، وأُعيد لفرنسا حق حماية بيت المقدس عام ١٠٨٤هـ (١٦٧٣م).

سار الخليفة بنفسه لقتال البولونيين، وانتصر عليهم فطلبوا الصلح، وعُقد، ودفعت بولونيا الجزية. وثار البولونيون على المعاهدة، وقاتلوا العثمانيين، وانتصروا عليهم، وبقيت الحرب سجالاً، ثم عادت المفاوضات، وتم الصلح، وتنازل البولونيون للعثمانيين عن بعض المواقع.

ثار القوزاق ضد الدولة العثمانية واستنجدوا بروسيا فأنجدتهم، ووقعت الحرب بين الطرفين عام ١٠٨٨هـ (١٦٧٧م) واستمرّت

حتى عام ١٠٩٢هـ (١٦٨١م)، وانتهت بمعاهدة.

وثار المجريون على طغيان النمسا واستنجدوا بالدولة العثمانية فأنجدتهم، وانتصرت عليهم، وحاصر الصدر الأعظم فيينا مدة شهرين عام ١٠٩٤هـ (١٦٨٢م)، وكادت تفتح لولا نداءات البابا إلى الدول النصرانية، وإثارة الهمم الصليبية فجاءت النجدات، وهُزم العثمانيون وانسحبوا بعد معارك طاحنة.

تمّ تحالف نصراني من البابا، والبندقية، ورهبنة مالطة، والنمسا، وبولونيا، وروسيا ضد الدولة العثمانية، وعرف هذا التحالف بـ «التحالف المقدس».

هاجمت النمسا مدينة «بودا» ودخلتها، وهُزمت الدولة العثمانية عام ١٠٩٧هـ و ١٠٩٨هـ (١٦٨٥ و ١٦٨٦م).

وأخذت بولونيا تُغير على إمارة البغدان وتُهدّدها.

وسفن البندقية تُغير باستمرار على سواحل اليونان، وشبه جزيرة المورة وتسندها سفن البابا، ورهبان مالطة، واستطاعت أن تدخل أثينا وعدداً من المدن سنة ١٠٩٧هـ (١٦٨٥م). ونتيجة هذا عُزل الخليفة محمد الرابع عام ١٠٩٩هـ (١٦٨٧م)، وتولّى مكانه أخوه سليمان الثاني.

٢٠- سليمان الثاني:

تقدّم الأعداء في أملاك الدولة العثمانية.

أخذوا كثيراً من المواقع عام ١٠٩٩-١١٠٠هـ.

أخذت البندقية سواحل دالماسيا (السواحل الشرقية لبحر الأدرياتيك)، وبعض المواضع في بلاد اليونان.

ثار سكان المورة ضد البندقية، وطردوا جيشها من بلادهم.

استعادت الدولة العثمانية بعض المواقع من النمسا، ومنها بلغراد.

استعادت الدولة العثمانية إقليم ترانسلفانيا لسلطانها.

وتوفي الخليفة سليمان الثاني عام ١١٠٢هـ (١٦٩٠م)، وتولى مكانه أخوه أحمد الثاني.

٢١- أحمد الثاني:

احتلت البندقية في أيامه بعض جزر بحر إيجه، وتوفي عام ١١٠٦هـ (١٦٩٤م)، وخلفه ابن أخيه مصطفى الثاني بن محمد الرابع.

٢٢- مصطفى الثاني:

قاد الجيوش بنفسه فانتصر على بولونيا، وعلى روسيا، وعلى

المجر، و ولكنه هُزم أمام النمسا، ثم عاد الروس ودخلوا ميناء آزوف، كما انتصر الصدر الأعظم على جيوش النمسا ودحرهم أمامه، وانتصر الأسطول العثماني على البندقية، واستردّ بعض الجزر في بحر إيجه.

عُقدت معاهدة بجهود فرنسا بين الدولة العثمانية، والنمسا، والبندقية، وروسيا، وبولونيا عام ١١١٠هـ (١٦٩٨م) وعُرفت هذه المعاهدة باسم معاهدة (كارلوفتس) فقدت الدولة العثمانية فيها مدينة آزوف لصالح روسيا، وبلاد أوكرانيا، وإقليم بودوليا، وبعض المدن لبولونيا، وساحل دالماسيا وبعض الجزر للبندقية، وبلاد المجر وإقليم ترانسلفانيا للنمسا، وعقدت هدنة مع النمسا لمدة خمس وعشرين سنة، ولم تبق أية دولة تدفع أي مبلغ كجزية للدولة العثمانية، وبذا كانت الدول النصرانية كلها تقف في وجه العثمانيين، وكانت متفقةً فيما بينها على الوقوف في وجه تقدُّم الدولة العثمانية، والعمل على تقسيمها، وعُزل الخليفة عام ١١١٥هـ (١٧٠٣م)، وولّي مكانه أخوه أحمد الثالث.

٢٣- أحمد الثالث:

أُعلنت الحرب على روسيا، وحاصر الصدر الأعظم بلطجي

محمد القيصر بطرس الأكبر وخليلته كاترينا. وأغرت كاترينا الصدر الأعظم ففكّ الحصار، ووقعت معاهدة بين الطرفين تعهد فيها القيصر بعدم التدخل بشؤون القوزاق والتخلي عن ميناء آزوف، وعُزل الصدر الأعظم.

وقعت معاهدة جديدة مع روسيا تنصّ على هدنة بين الطرفين مدتها خمس وعشرون سنة، وأخلّ القيصر بالشروط، وكادت الحرب تتجدّد، فتدخلت الدول وعقدت معاهدة أدرنة عام ١١٢٥هـ (١٧١٣م) تنازلت فيها روسيا عن كل ما أخذته من سواحل البحر الأسود، ولكنها تخلّصت مما كانت تدفعه إلى خانات القرم.

انتصرت الدولة العثمانية أيضاً على البندقية، وأخذت ما بقي بأيدي البنادقة من جزيرة كريت وبعض الجزر، فاستنجد البنادقة بالنمسا فوقعت الحرب بين الطرفين وانتصرت النمسا، وأخذت بلغراد، وجرى الصلح عام ١١٣٠هـ (١٧١٧م)، وأخذت النمسا بلغراد، وأكثر بلاد الصرب، وجزءاً من الأفلاق، وبقيت سواحل دالماسيا للبندقية، وبلاد المورة للعثمانيين.

وسمح للروس التجار وزوّار بيت المقدس المرور من أراضي الدولة العثمانية دون دفع شيء.

احتلّ الصدر الأعظم بلاد أرمينيا، وبلاد الكرج، واحتلّ قيصر روسيا بطرس الأكبر بلاد داغستان وسواحل بحر الخزر الغربية، واصطدمت الجيوش العثمانية مع الروسية وكادت تقع الحرب بين الطرفين لولا وساطة فرنسا بناءً على طلب روسيا التي وجدت نفسها عاجزةً عن القتال، وبقي كل فريق في المناطق التي دخلها دون معارضة الفريق الآخر.

عُزل الخليفة عام ١١٤٣هـ (١٧٣٠م) وولّي مكانه ابن أخيه محمود الأول بن مصطفى الثاني.

٢٤- محمود الأول:

وفي أيامه أعلنت روسيا والنمسا الحرب على بولونيا، واحتلتها روسيا، ورغبت فرنسا التحالف مع الدولة العثمانية لإنقاذ بولونيا عدواة بالنمسا وحليفتها روسيا. وأرضت النمسا فرنسا بمعاهدة فيينا، واتفقتا من جهة ثانية على قتال الدولة العثمانية.

بدأت روسيا بقتال الدولة العثمانية، واحتلت ميناء آزوف، فأسرعت الدولة العثمانية تجاه روسيا وتمكّنت من إيقاف تقدّمها في إقليم البغدان الذي احتلّوا عاصمته (ياسي).

أوقفت الدولة العثمانية تقدّم النمسا في البوسنة، والصرب،

والأفلاق، وانتصرت على الصرب، وعلى جيوش النمسا التي انسحبت من الميدان، وطلبت الصلح عن طريق فرنسا، وتمّ في معاهدة (بلغراد) عام ١١٥٢هـ (١٧٣٩م)، وتنازلت فيها النمسا عن بلغراد وعما سبق أن أخذته من بلاد الصرب وإقليم الأفلاق، وتعّهدت روسيا عدم بناء السفن في البحر الأسود، وهدم قلاع ميناء آزوف.

اتفقت الدولة العثمانية مع السويد بجهود فرنسية عام ١١٥٣هـ (١٧٤٠م).

قامت الحرب بين النمسا وفرنسا، وحاولت فرنسا الاتفاق مع الدولة العثمانية لقتال النمسا، ولكن العثمانيين رفضوا ذلك، وانتصرت النمسا.

توفي السلطان محمود الأول عام ١١٦٨هـ (١٧٥٤م)، وخلفه أخوه عثمان الثالث.

٢٥- عثمان الثالث:

وتوفي عام ١١٧١هـ (١٧٥٧م).

عاش المسلمون في البلقان في هذه المرحلة التي تقرُب من

مائتي سنة ٩٧٤-١١٧١هـ، في محنة قاسية حيث لم تكن الدولة العثمانية قوية يُمكنها حمايتهم فيما لو نشطوا في الدعوة إلى دينهم، وفي الوقت نفسه لم تكن هذه الدولة لتلتفت إلى رعاية هؤلاء الذين أسلموا حديثاً من الألبان ولا إلى أولئك الذين عرفوا إسلامهم قريباً من البشانقة. كما أن العثمانيين لم يستطيعوا كتم أنفاس الأعداء وإخضاعهم فكان المسلمون يخشون هؤلاء الأعداء الذين شحنوا بالحقد ضدّ الإسلام والمسلمين حيث هناك أمل بانتصارهم وسيطرتهم فبين المدة والمدة يُعلنون التمرّد، أو يقومون بالثورة، أو يتحالفون مع الدول الأخرى بل ويحصلون على النصر أحياناً.

وهكذا عاش المسلمون في البلقان بين الخوف وعدم الاهتمام بهم.

محنة المسلمين في البلقان

(٢)

ومع ضعف الدولة العثمانية زادت محنة المسلمين في البلقان إذ استأسد الأعداء عليهم وقد لمحوا ضعف حُماتهم العثمانيين، فأخذوا يُخطّطون للانتقام منهم بالإبادة أو التنصير أو على الأقل إذلالهم وتقتيل رجالهم واستحياء نسائهم ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة: ١٢٠].

أخذت الدولة العثمانية بعد عثمان الثالث بالدخول في دور الانحطاط إذ ظهرت الهزيمة النفسية، وأصبح تقليد الأوربيين والسير على منهجهم أمراً يُسعى إليه، ويُفتخر به، وغدا استقدام الضباط للتدريب، وإرسال البعثات أمراً قائماً، كما برزت فكرة القومية التي مزّقت الدولة.

وزاد الأثر اليهودي بظهور يهود الدونمة الذين اختفوا وسط المجتمع بأسماء إسلامية، وأول الخلفاء العثمانيين في هذه المرحلة:

٢٦- مصطفى الثالث:

وهو ابن الخليفة أحمد الثالث، وتولّى بعد ابن عمه عثمان الثالث، تولّى عام ١١٧١هـ (١٧٥٧م). أرادت الدولة العثمانية تأديب الروس قبل أن يستفحل أمرهم ففشلت، واحتلّ الروس بعدها إقليمي الأفلاق والبغدان، وأخذ الروس يُثيرون النصارى من الروم الأرثوذكس الذين يعيشون في الدولة العثمانية، فثار سكان شبه جزيرة المورة. واقتحمت روسيا القرم وفصلتها عن الدولة العثمانية، وجرت مفاوضات للصلح بواسطة النمسا ولكنها فشلت، وعادت الحرب، وانتصر العثمانيون.

٢٧- عبد الحميد الأول:

تولّى الخلافة بعد وفاة أخيه مصطفى الثالث عام ١١٨٧هـ (١٧٧٣م)، وفي أيامه انتصر الروس على العثمانيين فطلب القائد العثماني الصدر الأعظم الصلح والمفاوضة فتمّ ذلك في مدينة قينارجة في بلغاريا عام ١١٨٧هـ اعترفت فيها الدولة العثمانية باستقلال تتار القرم، وإقليم بسارابيا، ومنطقة قوبان على أن تكون الدولة العثمانية المرجع في الشؤون الدينية، وتكون لروسيا حرية الملاحة في البحر الأسود، والمتوسط، وتدفع الدولة العثمانية

لروسيا غرامة حربية، ويكون لروسيا حق حماية النصارى الأرثوذكس من رعايا الدولة، وتبني كنيسة في استانبول.

احتلت روسيا بلاد القرم، وكادت الدولة العثمانية تدخل الحرب ضد روسيا لولا نصائح فرنسا.

أعلنت الدولة العثمانية الحرب على روسيا عام ١٢٠٠هـ (١٧٨٥م)، وأعلنت النمسا الحرب على الدولة العثمانية تضامناً مع روسيا، وهُزمت النمسا أمام العثمانيين.

٢٨- سليم الثالث:

وهو ابن الخليفة مصطفى الثالث، وتولّى الخلافة بعد وفاة عمه عبدالحميد الأول عام ١٢٠٣هـ (١٧٨٨م).

اتحدت الجيوش النمساوية والروسية ضدّ العثمانيين، فتمكنت روسيا من الاستيلاء على الأفلاق والبغدان وبسارابيا، واستطاعت النمسا احتلال الصرب ودخلت بلغراد.

لم يطل اتفاق الروس والنمساويين، وحرص إمبراطور النمسا على مصالحة الدولة العثمانية، وأُعيدت نتيجة الصلح للعثمانيين بلاد الصرب وذلك عام ١٢٠٥هـ (١٧٩٠م).

استمـرت روسيا في حربهـا للدولة العثمانيـة، واستولت على بعض المدن، وتوسطت بريطانيـا، وهولندا، وبروسيـا للصلح بين الطرفين، فكانت مـعاهدة (ياسي) عـام ١٢٠٦هـ أخذت روسـيا بموجبها بلاد القرم نهائياً، وبـسارابيا، وجزءاً من بلاد الشراكسة، وبعض المناطق الأخرى.

ساءت العـلاقات بين الدولة العـثمانيـة وفرنسا لنـزول نابليون بونابرت في مـصر ومـحاولتـه السيطرة على المنطقـة، ثم اضطر الفـرنسيـون للانسـحاب من مـصر، وعـادوا للمـفاوضـات مع العثمانيين لإعادة التفاهم وتحسين العلاقات، وتأييد امتيازات فرنسا السابقة في الدولة العـثمانية، وخرجت بريطانيا من مـصر أيضاً، وأقيم في اليونان جـمهورية مستـقلة تحت حماية الدولة العثـمانية بالاتفاق مع روسيا.

احتلت روسـيا إقليمي الأفـلاق والبغدان دون إعـلان الحرب، وتضامنت بريطانيا مع روسيا.

واقترحت بريطانيا على الدولة العـثمانية بعض المطالب، ورأى الخليـفة أن يـقبل تلك الـطلبات غيـر أن فرنسـا دعـمت الدولة العـثمـانية وطلبت مـنها عـدم التنازل لبريـطانيا فـرفض الخليفـة

اقـتراحـات بريطانيـا، وسـاءت العلاقـات. وثار الجنود وعـزلوا الخليفة.

٢٩- مصطفى الرابع:

وهو ابن الخليفة عبد الحميد الأول، تولّى السلطة بعد عزل ابن عمـه سليم الثالث عام ١٢٢٢هـ (١٨٠٧م)، وتحسّنت العـلاقات أيامه مع روسيا مدة سنتين.

عُزل الخليفة عام ١٢٢٣هـ، وتولّى مكانه أخوه محمود الثاني.

٣٠- محمود الثاني:

عقد صلحاً مع بريطانيا عام ١٢٢٤هـ، وحاول مع روسيا لكنه فشل، واندلعت الحرب بين الطرفين، وهُزم العثمانيون، واستولى الروس على بعـض المواقع، وعُـزل الصـدر الأعـظم الذي هُزم، وأُعطي أحـمـد باشا الصـدارة العظمـى فانتـصـر على الروس، واستعاد المواقع التي خرجوا منها.

طلبت روسيا الصلح من الدولة العثمانية، وعُقدت بين الطرفين مـعاهـدة (بخارست) الـتي نصت على بقـاء الأفلاق والـبغـدان والصرب تابعة للدولة العثمانيـة، وبسارابيا لروسيا. وثار الصرب عندما علموا بمعـاهدة بخارست لبقائهم تابعين للعثمـانيين غير أن

الدولة قد أخضعتهم بالقوة، وفرّ زعماء الحركة إلى النمسا، وأظهر أحدهم وهو تيودورفتش الولاء للدولة العثمانية ثم أعلن العصيان عام ١٢٣٠هـ (١٨١٤م)، واستمرت المعارك بينه وبين العثمانيين سنتين، وكانت سجالاً، وأعلن بعدها الخضوع للدولة العثمانية على أن لا تتدخل في شؤون الصرب الداخلية.

قامت الثورة في اليونان ضد العثمانيين عام ١٢٣٥هـ (١٨١٩م)، وأخيراً أخضع إبراهيم بن محمد علي باشا والي مصر اليونانيين، ودخل أثينا عام ١٢٤١هـ (١٨٢٤م)، وتدخلت الدول الأوربية، ثم عُقد الصلح مع الدولة العثمانية، وكانت معاهدة (آق كرمان) في ٢٨ صفر ١٢٤٢هـ (٣٠ أيلول ١٨٢٦م) وأخذت الدول الأوربية تتدخل بشؤون الدولة العثمانية، واتفقت بريطانيا وفرنسا وروسيا على قتال الدولة العثمانية وأرسلت أساطيلها إلى السواحل اليونانية فُهزم العثمانيون، وانسحب إبراهيم باشا من اليونان بعد أن دُمّر الأسطول العثماني وأكثر الأسطول المصري، وقُتل ما يزيد على ثلاثين ألف جندي مصري، واحتجّ الخليفة فلم يجده ذلك، وأصدر للرعية بياناً أن القتال يجب على المسلمين للدفاع عن عقيدتهم، وخصّ بذلك روسيا التي تأثّرت من ذلك

وأعلنت الحرب على الدولة العثمانية في ١١ شوال عام ١٢٤٣م (٢٥ نيسان ١٨٢٨م).

عقدت الدول الأوربية الثلاث (بريطانيا-فرنسا-روسيا) مؤتمراً في لندن ودعيت إليه الدولة العثمانية فرفضت الحضور، وقرر المؤتمر إعلان استقلال اليونان، وتُحكم من قبل حاكم نصراني، تنتخبه هذه الدول ويكون تحت حمايتها. وتدفع اليونان جزيةً سنويةً للدولة العثمانية، ولكن الدولة رفضت المؤتمر وقراراته.

أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية واحتلت إقليمي البغدان والأفلاق وجعلت عليهما حاكمين من قبلها، واجتازت نهر الدانوب، وحاصرت مدينة (فارنا) البلغارية الواقعة على البحر الأسود، ثم دخلتها نتيجة خيانة في أول ربيع الثاني ١٢٤٤هـ (١٠ تشرين الأول ١٨٢٨م)، وكذلك احتلّت مدينة (قارص) في شرقي الأناضول، ثم تقدّمت من ناحية الغرب، واحتلت مدينة (أدرنة)، وخشيت بريطانيا وفرنسا من احتلال استانبول حرصاً على مصالحهما، فوقفتا في وجه روسيا، وعُقدت معاهدة (أدرنة) في منتصف شهر ربيع الأول ١٢٤٥هـ (١٣ أيلول ١٨٢٩م)، وأهم ما جاء فيها:

١- يعدّ نهر (بروت) الحد الفاصل بين الدولتين (العثمانية وروسيا).

٢- تكون الملاحة في نهر الدانوب عند مصبه من حق الدولتين.

٣- حرية الملاحة الروسية في البحر الأسود.

٤- إعادة الأفلاق والبغدان، ودوبروجة، والبلقان، والبلغار، وقارص، وأرضروم للدولة العثمانية.

٥- لا تفتش السفن الروسية أثناء مرورها في المضائق العثمانية.

٦- تعوّض الدولة العثمانية لروسيا مبالغ كمصروفات حرب.

٧- يُطلق سراح الأسرى الذين عند الدولتين.

٨- تستقل بلاد الصرب، ويُعطى ما بقي من أجزائها للدولة العثمانية.

٩- تُعاد الامتيازات القنصلية الروسية، ورعايا روسيا لهم المعاملة نفسها التي لرعايا الدول الأوربية الأخرى، وكذا الامتيازات.

وخشيت الدول النصرانية من سيطرة محمد علي باشا على الدولة العثمانية وإعادة القوة إليها، فأرسلت روسيا خمسة عشر ألف جندي لحماية استانبول، وخافت بريطانيا وفرنسا من وجود قوة روسية في استانبول فطلبتا من الخليفة ضرورة التفاهم مع واليه محمد علي.

وأثناء وجود القوات الروسية في استانبول عقدت روسيا مع الدولة العثمانية معاهدةً جانبيةً عُرفت بمعاهدة (خونكاراسكله سي) تعهدت فيها روسيا بالدفاع عن الدولة ضد جيوش محمد علي أو أي معتدٍ، وبذلك أصبح بإمكانها التدخل في شؤون الدولة الخاصة.

وتوفي الخليفة العثماني محمود الثاني في ١٩ربيع الثاني عام ١٢٥٥هـ (الأول من تموز ١٨٣٩م).

٣١- عبد المجيد الأول:

تولّى الخلافة بعد وفاة أبيه.

تقدمت الدول الأوربية (روسيا - بروسيا - النمسا - فرنسا - بريطانيا) بلائحة مشتركة تطلب من الخليفة الجديد ألا يقرّ موضوعاً في شأن يتعلق بوالي مصر دون الرجوع إليها، فقبل الخليفة اللائحة. وظهر التباين في وجهات نظر الدول الأوربية حسب مصالحها.

ثار سكان الأفلاق والبغدان رغبةً في تأسيس دولة واحدة تشمل الإقليمين مع إقليم ترانسلفانيا فأرسلت الدولة العثمانية قوة لإعادة الوضع إلى ما كان عليه، وأسرعت روسيا واحتلت الإقليمين، واحتجت الدولة العثمانية، وكادت تقع الحرب بينها

وبين روسيا ثم جرى اتفاق (بلطه ليمان) قرب استانبول عام ١٢٦٥هـ (١٨٤٩م)، وينص على أن يبقى حق تعيين أمراء الإقليمين من حق الدولة العثمانية، وأن يبقى فيهما جيش عثماني -روسي لمدة سبع سنوات.

وقع الخلاف بين فرنسا وروسيا بشأن حماية الكنائس في بيت المقدس.

احتلت روسيا إقليمي الأفلاق والبغدان فأرسلت الدولة العثمانية قوةً أجبرتها على الانسحاب.

دمّرت الأساطيل الروسية في البحر الأسود القطعات العثمانية.

وقع الخلاف بين فرنسا وبريطانيا من جهة وروسيا من جهة أخرى.

جرى اتفاق بين الدولة العثمانية وفرنسا وبريطانيا على محاربة روسيا وكان ذلك في ١٢ جمادى الآخرة عام ١٢٧٠هـ (١١ آذار ١٨٥٤م)، ووقعت الحرب بين الطرفين في البر والبحر، وشاركت كثير من دول أوربا في القتال ضدّ روسيا، وانتهت بمعاهدة باريس وتنص على:

١- تُخلى المناطق التي احتلت أثناء الحرب من كلا الطرفين.

٢- حرية الملاحة في البحر الأسود للدول جميعاً، ولا تُنشأ فيه قواعد بحرية لا عثمانية ولا روسية.

٣- حرية الملاحة في نهر الدانوب.

٤- يبقى إقليما الأفلاق والبغدان تحت حماية الدولة العثمانية.

٥- تبقى الصرب مرتبطة بالدولة العثمانية.

وأوجدت الدول النصرانية مشكلات في الصرب، والجبل الأسود، والبوسنة لتفصلها عن الدولة العثمانية، وبدأت الثورات تندلع وتمنع الدول الأوربية الدولة العثمانية من إخماد هذه الثورات بتهديد الدولة، بل كانت الدول الأوربية هي التي تدعم هذه الثورات وأصبح سفراء هذه الدول شركاء في السلطة. وكذلك أُثيرت مشكلة في جزيرة كريت.

وتوفي الخليفة عبدالمجيد الأول في ١٧ ذي الحجة عام ١٢٧٧هـ (١٨٦١م)، وتولّى بعده أخوه عبدالعزيز.

٣٢- عبدالعزيز:

أظهر الميل نحو روسيا لتقدّم دول أوربا الغربية ببعض التنازلات للدولة العثمانية في سبيل إبعادها عن روسيا، ولكنه عزل عام

١٢٩٣هـ (١٨٧٦م)، ثم قُتل، وأُشيع أنه انتحر، وتولّى الخلافة بعده مراد الخامس بن عبدالمجيد (ابن أخي عبدالعزيز).

٣٣- مراد الخامس:

وعُزل بعد ثلاثة أشهر، وأُشيع أن عزله كان بسبب اختلال في عقله.

٣٤- عبدالحميد الثاني:

وهو أخو مراد الخامس، وابن عبدالمجيد الأول.

وبرزت في عهده العصبيات القومية لتجزئة أوصال الدولة، فظهر مركز القومية العربية في بيروت، وتُحركه الإرساليات التنصيرية، وظهر مركز القومية الطورانية (التركية) في استانبول وتُحرّكه عناصر يهود الدونمة، وتُوجّهه الدول الأوروبية ما دام الهدف تجزئة الدولة.

وجد الخليفة العمل إلى الجامعة الإسلامية لجمع الأمة والردّ على أصحاب العصبيات وإظهار الذين يحرّكون التحركات المشبوهة من الخلف، وهذا ما جعل صواب الدول الأوروبية يطيش وتخرج عن مسار العمل السياسي فاتجهت إلى دعم الفئات التي تبنّت العصبيات ودفعتها للتحرّك كما أثارت الشعوب غير المسلمة

والأقليات أيضاً، كما أنها أخذت تشيع الشائعات الكاذبة ضد الخليفة.

ثار النصارى في بلاد البوسنة والهرسك بتحريض الصرب ونصارى الجبل الأسود غير أن ثورتهم قد أخمدت وعولجت باللين كي لا يكون هناك مجال لتدخّل الدول الأوروبية، وهذا ما شجّع الذين ثاروا إلى الحركة ثانية، ولكن قمعت حركتهم أيضاً.

وثار البلغار بتأثير الجمعيات التي قامت تعمل لنشر النفوذ الروسي وتدعمها روسيا والنمسا ولكن الدولة العثمانية قضت على هذه الثورة، وانتشرت الشائعات المغرضة عن جرائم نُسبت للجنود العثمانيين، كما أُشيع أن الدولة تريد إقطاع الشراكسة أراضي بلغاريا بعد أن غادر الشراكسة ديارهم بعد سيطرة الروس على بلادهم.

وثار الصرب وسكان الجبل الأسود وشجّعتهم روسيا والنمسا وألمانيا للقيام بحرب ضد العثمانيين إذ كانت روسيا تريد توسعة حدودها من جهة بلغاريا، والنمسا تريد توسعة حدودها من جهة البوسنة، والبوشناق سكان البوسنة مسلمون لا يمكن أن يتحرّكوا بأوامر من الدول النصرانية ضد العثمانيين المسلمين، لذا كانت

إثارة سكان الجبل الأسود جنوب البوسنة. ووعدت الدول الأوربية الصرب وسكان الجبل الأسود بالدعم فإن انتصروا جاءت الجيوش الأوربية وقضت على العثمانيين، وإن انتصرت الدولة العثمانية عليهم وقفت الجيوش الروسية بجانبهم ونصرتهم على الأعداء، أما جيوش النمسا وألمانيا فلا يمكن وصولها لوجود البوسنة بالوسط، وبدأت الجيوش الروسية تتدفق سراً على بلاد الصرب والجبل الأسود، والحقيقة أن الروس هم الذي يُحاربون العثمانيين تحت اسم الصرب والجبل الأسود.

ووجد الصرب ذريعة للقتال ودخلوا أراضي الدولة فتصدّت لهم وهزمتهم وأصبح طريق بلغراد مفتوحاً أمام العثمانيين، وتدخّلت روسيا، واجتمع مندوبو دول أوربا في استانبول خوفاً من تفرّد روسيا بالغنيمة المرتقبة، وقدّم المندوبون اقتراحات للدولة، ولكنها رفضت.

أعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية فجأة، ودخلت رومانيا، واجتازت نهر الدانوب، وانتصرت في عدة مواقع، هذا من جهة الشمال، وكذلك من جهة الشرق تقدّمت الجيوش الروسية، واحتلّت عدة مدن وقلاع ومنها (قارص)، ثم تراجعت

وانتصر العثمانيون في ستة مواقع، وجاءت النجدات للروس فانتصروا ثانية، وأعلن الصرب الحرب على الدولة العثمانية، وتابع سكان الجبل الأسود القتال، واحتلّ الروس (صوفيا) عاصمة بلغاريا، وتابعوا إلى (أدرنة) فدخلوها، واتجهوا نحو استانبول، وما شعر النصارى بانتصار الأوربيين حتى انقضوا يفتكون بالمسلمين. وأرسل الخليفة وفداً للصلح فتوقّف القتال في مطلع عام ١٢٩٥هـ (١٨٧٨م) وعقدت معاهدة (سان استيفانوس) على بحر مرمرة قرب استانبول، وقدّم المندوب الروسي شروطاً مسبقاً، ولم يكن للعثمانيين الخيار فما كان سوى التوقيع، وأهم الشروط هي:

١- تحصل منطقة الجبل الأسود على الاستقلال، مع تعديل الحدود، وإذا حدث نزاع تحلّه النمسا وروسيا.

٢- تحصل إمارة الصرب على الاستقلال، وتضاف لها أراض جديدة.

٣- تحصل بلغاريا على الاستقلال الإداري، وتدفع جزيةً للدولة، ويكون الموظفون فيها من النصارى فقط، ويُخلي العثمانيون جنودهم من بلغاريا نهائياً.

٤- تحصل دولة رومانيا على الاستقلال التام.

٥- يتعهد الباب العالي بحماية الأرمن النصارى من الأكراد والشراكسة.

٦- يقوم الباب العالي بإصلاح أوضاع النصارى في جزيرة كريت.

٧- تدفع الدولة العثمانية غرامة حربية قدها (٣٤٥,٢١٧,٣٩١) ليرة ذهبية، ويمكن لروسيا أن تتسلم أراض مقابل هذا المبلغ.

٨- تبقى المضائق (البوسفور والدردنيل) مفتوحة للسفن الروسية أيام السلم والحرب.

٩- يمكن للمسلمين الذين يعيشون في الأراضي التي اقتطعت من الدولة العثمانية أن يبيعوا أملاكهم ويهاجروا إلى حيث يرون من مناطق الدولة العثمانية.

أما بقية الدول الأوربية فلم تكن على رأي واحد فبريطانيا تخشى من توسّع روسيا وامتدادها، والنمسا ترغب اقتسام الدولة العثمانية مع روسيا، وتعمل للسيطرة على البوسنة والوصول إلى (سالونيك) ودخول مياه البحر المتوسط، وألمانيا لا تبالي بالأمر، وتميل إلى موقف روسيا، وإيطاليا لا ترى لها مصلحة، وتقف فرنسا على الحياد.

مؤتمر برلين:

دعت النمسا إلى عقد مؤتمر في برلين إذ ترى ألمانيا أن تأخذ النمسا مقاطعة البوسنة، واشترطت بريطانيا إعادة النظر في معاهدة (سان استيفانوس)، واختلفت مع روسيا وكادت الحرب تقع بينهما، واضطرت روسيا للموافقة أمام إصرار بريطانيا ولأن المسلمين البلغار اعتصموا بالجبال وأخذوا يهاجمون القوات الروسية، وينتقمون من النصارى الذين فتكوا بهم سابقاً.

وعقدت معاهدة دفاعية سرية بين الدولة العثمانية وبريطانيا خوفاً من روسيا، وتنازلت الدولة العثمانية عن جزيرة قبرص.

ومن أهم مقررات مؤتمر برلين:

١- توسّعت بلاد الصرب على حساب بلغاريا.

٢- توسّعت حدود اليونان شمالاً على حساب ألبانيا.

٣- أعطيت البوسنة والهرسك للنمسا.

٤- أخذت روسيا مقاطعة بسارابيا من رومانيا، وأُعطيت رومانيا عوضاً عنها مقاطعة (دوبروجيه) وبعض الجزر.

ووُقّع على بنود المؤتمر في رجب ١٢٩٥هـ (تموز ١٨٧٨م).

وهكذا حصلت روسيا، والنمسا، وبريطانيا على أجزاء من الدولة العثمانية. كما توسّعت صربيا والجبل الأسود على حساب الألبان المسلمين.

كما هُجّر بعض السكان، فانتقلوا إلى تركيا.

وكان الصرب يطمعون بالحصول على البوسنة وكوسوفا غير أن النمسا قد ضمّت إليها البوسنة.

هذا بالنسبة إلى الأعمال الخارجية أما في الداخل فكانت نقمة الأقليات عامة واليهود خاصة على الخليفة عبدالحميد الثاني لتوجّهه نحو الإسلام ولوقوفه في وجه اليهود الذين اتجهوا نحو فلسطين لتحقيق أحلامهم فيها فتضافرت جهود الأعداء جميعاً ووصلت إليهم مساعدات الدول الكبرى فخلع الخليفة في ٧ ربيع الثاني ١٣٢٧هـ (٢٧ نيسان ١٩٠٩م).

وهكذا عاش المسلمون في البلقان مدة ١٥٦سنة (١١٧١-١٣٢٧هـ) في خوف يتوقّعون الضربة تأتيهم في كل حين فالدولة المسلمة التي يتبعونها في مرحلة من الانحطاط تهاجمها الدول الأوربية النصرانية وتحرز النصر في كثير من المواقع، وهي حاقدة فقد تصبّ نقمتها في أي وقت والأمر ميسور، والشعوب النصرانية

المجاورة تتمرّد، وتحصل على النجاح في بعض الحركات، وهي مشحونة حقداً ممتلئة ضغينة تنتظر الفرصة لتفرغ شيئاً مما تحمله من غلّ على المسلمين كحكام وكجوار، ولولا هيبة الدولة العثمانية في أعين الدول المعتدية، وفي نظر الشعوب المتمرّدة، إذ لا تزال الدولة تصدّ الاعتداء بهجوم وقد تنتصر، وتردّ على الضربة بمثلها وقد تفوز إذ لا تزال الروح المعنوية جيدة، كما تقمع التمرّد ولكن تعالج الأمور بلين وحذر حتى لا تفسح المجال للدول الأوربية النصرانية بالتدخّل ومساعدة الثائرين. فلولا هذه الهيبة ورجحان الكفة العسكرية أحياناً وردّ الصاع بمثله لبدأت حرب إبادة المسلمين في البلقان منذ تلك المرحلة، وإن عاشوا بمحنة، فالخوف يخيم على الأجواء، وإنزال النقمة متوقع بعد كل نجاح يحرزه النصارى الحاقدون.

محنة المسلمين في البلقان

(٣)

خُلع الخليفة عبدالحميد الثاني، وتسلّم حكم الدولة العثمانية رجال الاتحاد والترقي، وهؤلاء يُخالفون نهج الدولة العثمانية، ويسيرون على غير المبدأ الذي كانت تسير عليه، يدعون إلى القومية الطورانية فلم يَعُدْ لهم ارتباط بالشعوب الثانية التي تُكوِّن الخلافة من غير الترك، لذا لابُدّ من أن يتخلّوا عنها ويتركوها تحت سلطة اليد التي تستولي عليها، ولكن لا يمكن إعلان هذا، وترك الرعية سائمةً. كما يبتعدون عن النهج الإسلامي بل وينفرون منه، ويخامر ذهنهم الفكر اليهودي والنصراني ولكنه من الصعب بمكانٍ تبنّي هذا، لذا فقد ادعوا (العلمانية) أي عدم اتباع دين حسب اصطلاحهم وإن كانت الكلمة تعني النفاق، أو البعد عن الإسلام والأخذ مما تهوى الأنفس.

أخذ رجال الاتحاد والترقي يسعون إلى تطبيق نهجهم تدريجياً كي لا تقوم أمامه المعقوات فنصّبوا خليفة غير أنه لم يكن سوى صورة تصدر القوانين والتعليمات باسمه ويُوقعها مرغماً وليس له الخيار في ذلك وينفّذها الذين بيدهم القرار وهم رجال الاتحاد

والترقي. لقد نصّبوا أخا الخليفة المخلوع وهو محمد رشاد باسم محمد الخامس.

٣٥- محمد رشاد (محمد الخامس):

وكان عمره ثماني وستين سنة. وأُجريت الانتخابات، وفاز الاتحاديون بالأغلبية وبرزت القوميات، وطفت الطورانية على السطح.

احتلت إيطاليا بلاد طرابلس الغرب (ليبيا).

ضمّت النمسا إليها البوسنة والهرسك بالاتفاق مع روسيا.

أعلن الجبل الأسود الحرب على الدولة العثمانية ووقف إلى جانبه التحالف البلقاني (بلغاريا - اليونان - صربيا) فانتصروا على العثمانيين وذلك عام ١٣٣٠هـ (١٩١٢م)، وفقدت الدولة العثمانية معظم أراضيها في أوربا، وبعد وقف القتال جرى الاتفاق على استقلال ألبانيا، وقُسّمت الأراضي الباقية التي كانت للعثمانيين بين أعضاء التحالف البلقاني، وعُرفت هذه الحرب باسم (حرب البلقان الأولى).

لم يلبث أعضاء التحالف البلقاني أن اختلفوا على تقسيم التركة التي حصلوا عليها، وتنازعوا حول سيادة بلغاريا على مقدونيا،

وأصرّت بلغاريا على ذلك فوقفت في وجهها كل من الصرب ورومانيا واليونان ووقعت بينهم الحرب عام ١٣٣٢هـ (١٩١٤م) فانضم العثمانيون إلى هذه الحرب، ووقفوا ضد بلغاريا، وحصلوا منها على جزء مما خسروه في حرب البلقان الأولى إذ ضمّوا إليهم تراقيا بما فيها أدرنة نتيجة معاهدة لندن عام ١٣٣٢هـ (١٩١٤م)، وعُرفت هذه الحرب باسم (حرب البلقان الثانية).

ثم قامت الحرب العالمية الأولى، ووقفت الدولة العثمانية إلى جانب ألمانيا، وكانت هزيمتهما، وهذا ما زاد الدولة العثمانية ضعفاً إذ فقدت البلدان العربية التي كانت ضمن أجزاء الدولة.

٣٦- محمد وحيد الدين (محمد السادس):

توفي الخليفة محمد رشاد قبل استسلام الدولة بعدة شهور، وتولّى بعده أخوه محمد وحيد الدين.

استسلمت الدولة في عهده للحلفاء، وقد سيطروا على استانبول والمضائق، واحتلت اليونان الأقسام الغربية، وإيطاليا أجزاء من الجنوب، وضاعت البلدان العربية وغيرها.

اعتزل محمد وحيد الدين السلطة، وتنازل عن الخلافة عام ١٣٤٠هـ.

٣٧- عبدالمجيد الثاني:

وهو ابن عبدالعزيز أصبح خليفةً بعد تنازل محمد السادس، وجُرِّد من السلطات السياسية كافةً. وعقد مؤتمر في لوزان وحضره وفد أنقرة فقط، إذ لم يحضره وفد استانبول، ووضع رئيس الوفد الإنكليزي (كرزون) أربعة شروط للاعتراف باستقلال تركيا وهي:

١- إلغاء الخلافة الإسلامية.

٢- طرد الخليفة من بني عثمان خارج الحدود.

٣- إعلان علمانية الدولة.

٤- مصادرة أملاك وأموال بني عثمان.

ثم قرر مصطفى كمال إلغاء الخلافة وإعلان الجمهورية في ٢٧ رجب ١٣٤٢هـ (٣ آذار ١٩٢٤م).

وهكذا أصبح المسلمون في البلقان لا ظهر لهم يستندون عليه ولا حامي لهم من الأعداء سوى الله سبحانه وتعالى وكفى بالله ولياً وكفى به نصيراً. كما غدوا بعيدين عن إخوانهم لا يسمعون أنينهم بل ولا يعرفون مواطنهم إلا إذا أعادت صدى توجّعاتهم وسائل إعلام الأعداء فأسمعت صوت فري الأنياب في

أجسـامـهم. ورغـم ذلك فـإن المسلمين هناك قـد حـافظوا على عقيدتـهم، والتزموا بدينهم، ووصلت أخبارهم لإخوانهـم فعرفوا ما يُعانون، وهم قد قاوموا بل واستعدّوا للمواجهة.

المسلمون في البلقان بين الأنياب

قلنا إن المسلمين في البقان مجموعتان رئيسيتان وهما: البشانقة والألبان ويُضاف لهما جماعات قليلة اعتنقت الإسلام من مختلف شعوب البلقـان وبقيت بين أقوامهـا وإن كانت لا تدين بما يدينون وما من شعب إلا وفيه جماعة مـسلمة وتختلف نسبتها بين شعب وآخر، كما توجد مـجموعات تركية استقـرت في مناطق مختلفة سواء أكـان استيطانهـا لأمور إدارية أم طاب لهـا المقام في مكانٍ، وكل هذه الجمـاعات وخاصة التـركية منها قـد فرت فيهـا أنياب الأعداء عامة وأنياب أبناء جلدتها من غير ملّتها فوحدة الأصل لا وزن لها ولا مكانة لها بين الأمم، وإن رفعتها شعوب ثم لفظتها، تمسّكت بالأرومة دون العقيدة، وهي العصـبية الجاهلية بالنسبة إلى المسلمين.

أما البوشناق وهم أهل البوسنـة والهرسك فقد أُعطيت بلادهم للنمسا بعد مـؤتمر برلين عام ١٢٩٥هـ (١٨٧٨م)، وكانت سنوات عجـاف تحت حكم النمسا قـاس المسلمون فـيها الكثـير من ظلم واضطهاد، وأُجبرت أعداد كبـيرة إلى الهجرة نحو بلاد الأناضول

والمناطق التي بقيت بيد العثمانيين، وأخيراً اضطروا إلى الثورة عام ١٣١٨هـ بقيام علي فهمي جاتيش.

وقتل ولي عهد النمسا فرانسوا فرديناند وزوجته صوفي شوتيك في عاصمة البوسنة سيراجيفو وهما يقومان بجولة فيها، واندلعت نار الحرب العالمية الأولى إثرها.

وقامت مملكة الصرب بعد الحرب العالمية الأولى فهدّمت المساجد، وانتهت الكتاتيب والمدارس، هدم ٢٦٨ مسجداً في بلغراد من أصل ٢٧٠ مسجداً، أما المسجدان الباقيان فهما مسجد (بتّار) وأصبح مقراً للمجلس النيابي الصربي، ومسجد (بيرقلي) فبقي من الآثار حيث بني عام ٨٢٨هـ.

وبعد الحرب العالمية الثانية سيطر الشيوعيون فقامت موجة عنيفة ضد المسلمين باسم محاربة الأديان فقتل ٢٤ ألفاً من المسلمين بعد الحرب مباشرةً، منهم ١٥ ألفاً من منطقة (طوزلا) شرقي مقاطعة البوسنة، وستة آلاف من مقاطعتي مقدونيا وكوسوفا، وحكمت محكمة (سكوبيا) عاصمة مقدونيا على سبعة عشر زعيماً ألبانياً، وبعد عام حكمت على ثلاثة آخرين مع أربعة وعشرين حُكم عليهم بالأشغال الشاقة وأغلقت الكلية العليا

للتربية الإسلامية في سيراجيفو (عاصمة البوسنة) كما هُجّر مائة وخمسة وعشرون ألف ألباني إلى تركيا والشام. ولم يتحرّك رئيس ألبانيا أنور خوجا لمساعدة كوسوفا لذا فقد سكت عنه الغرب.

وتعرّضت البوسنة لمحنة قاسية قبل سنوات ذهب الكثير من أبنائها بين قتل وتشريد، وصبر المسلمون فيها، فنالوا اسم دولة مستقلة رغم ما فيها من أوتاد فنرجو لأهلها الجزاء وحسن المسير.

أما الألبان وهم سكان المنطقة الغربية من البلقان، وكانوا ينتشرون على مساحة تزيد على مائة ألف كيلومتر مربع. وكانوا في العهد العثماني يتوزعون في أربع ولايات بصورة رئيسية إضافة إلى أقليات يعيشون في مناطق مجاورة لهذه الولايات، وهي:

١- شكودر: في شمالي ألبانيا اليوم.

٢- كوسوفا.

٣- ماناستير: وتضمّ سكوبيا عاصمة مقاطعة مقدونيا اليوم.

٤- يانينة: في شمال اليونان حالياً، وهي إقليم شمريا.

قررت الدولة العثمانية إعطاء هذه الأقاليم الألبانية الأربعة الاستقلال، وذلك عام ١٣٢٨هـ (١٩١٠م) وكانت تقدر مساحة

هذه الأقــاليم بثمــانية وأربعين ألـف كيلومـتر مـربع، وتضمّ من السكان مليونين ومائة ألف إنسان.

ولكن استقل جزء من هذه الولايات وحمل اسم ألبانيا، وتبلغ مساحتها فقط ٢٨,٧٤٨ كيلومتـر مربع. وقُبلت عضواً في عصبة الأمم المتحدة في ٦ ربيع الثاني ١٣٣٩هـ (١٧/ ١٢/ ١٩٢٠م).

ويتوزّع الألبان اليوم في:

ألبانيا وفيها ٣,٥٠٠,٠٠٠ نسمة.

كوسوفا: ٢,٣٠٠,٠٠٠ نسمة.

مقدونيا: ١,٠٠٠,٠٠٠ نسمة. ويشكلون ٢٥٪ من مجموع السكان.

اليونان: ٥٠٠,٠٠٠ نسمة.

الجبل الأسود: ٢٥٠,٠٠٠ نسمة.

صربيا: ١٠٠,٠٠٠ نسمة. في مقاطعة شامريا.

كوسوفا

تبلغ مساحة إقليم كوسوفا ١٠,٨٧٧ كيلومتراً مربعاً أي أكبر من مساحة لبنان بقليل، إذ تبلغ مساحة لبنان ١٠,٤٠٠ كيلومتر مربع.

يبلغ عدد سكان كوسوفا ٢,٣٠٠,٠٠٠ إنسان، تبلغ نسبة المسلمين بينهم ٩٣٪ والباقي من النصارى وأغلبهم من الأرثوذكس.

وينتمي أكثر سكان الإقليم إلى الألبان وتزيد نسبتهم على ٩٠٪ من مجموع السكان، وينتمي أكثر من بقي من السكان إلى الصرب.

ويُعدّ إقليم كوسوفا امتداداً بشرياً لألبانيا، وهضبة مرتفعة يتراوح ارتفاعها بين ١١٥٤م على حدود صربيا و ٢٦٥٦م على حدود الجبل الأسود و ٢٧٠٢م على حدود مقدونيا.

ويعدّ إقليم كوسوفا خزان ماء إذ تنبع منه كثير من الأنهار التي تُغذّي المنطقة فمن جهة الشرق يبدأ مجرى نهر مورافا، ويجري نحو الشرق فيدخل بلاد صربيا ثم يتجه شمالاً فيصبّ في نهر الدانوب شرق مدينة بلغراد وعلى بعد خمسين كيلومتراً منها.

وعلى مقربة من مبدأ نهر مورافا يجري نهر فاردار نحو الجنوب فيدخل مقدونية، وبعدها يدخل بلاد اليونان ويصبّ في بحر إيجه إلى الغرب من مدينة سلانيك، وعلى بعد عشرين كيلومتراً منها.

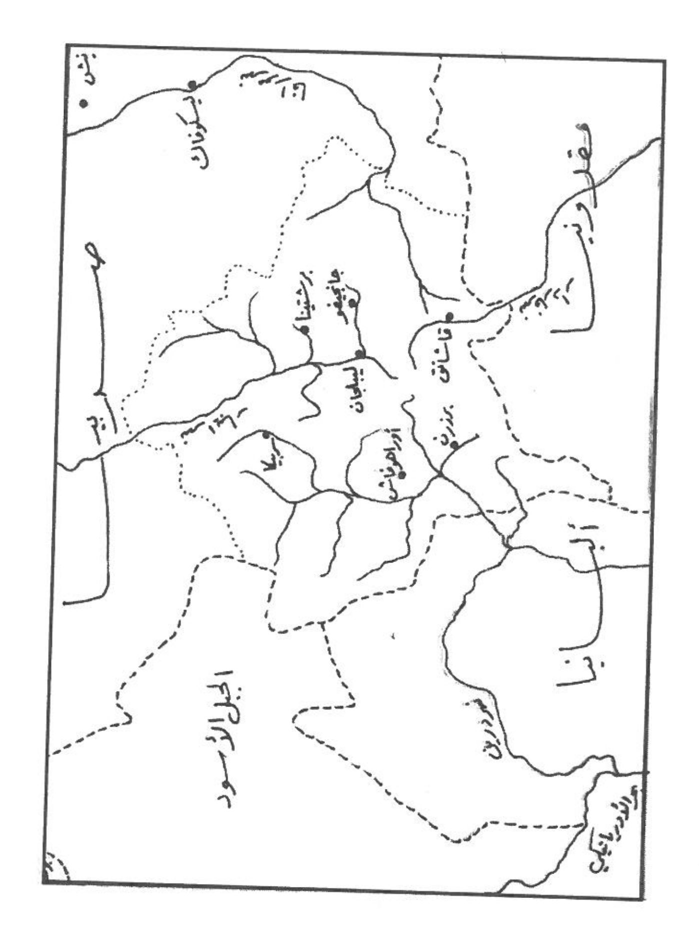
وإلى القرب من منبع النهرين السابقين يخرج نهر إيبار، ويتجه شمالاً فيمر من غرب العاصمة برشتينا والتي تقع على أحد روافده، وعلى بعد أحد عشر كيلومتراً من مجراه، ويتابع النهر مجراه شمالاً فيدخل صربيا فيرفد نهر السابا -أحد روافد نهر الدانوب- والذي يلتقي به عند مدينة بلغراد، أما نهر أيبار فيصب في نهر السابا غرب مدينة بلغراد وعلى بعد مائة كيلومتر منها.

وفي الغرب يجري نهر درين ويلتقي فيه عدد من مجاري الأنهار ثم يجري نحو الجنوب الغربي ويدخل ألبانيا، ويشكل قوساً ينفتح نحو الجنوب ويصب في بحر الأدرياتيك.

وعلى طول مجاري الأنهار تمتدّ السهول، وتقوم الزراعات المختلفة، وعلى المرتفعات تنتشر الغابات التي يستفاد من أخشابها.

كما تضمّ أرض كوسوفا ثروةً معدنيةً، وهذا كله يدلّ على غنى الإقليم، وإمكانية الإفادة من ثرواته المختلفة.

والعاصمة هي مدينة برشتينا.



كان إقليم كوسوفا يعرف باسم «داردانيا».

مُنح إقليم كوسوفا للصرب بعد مؤتمر السفراء في لندن عام ١٣٣٢هـ (١٩١٣م)، وكان الصرب يحلمون بصربنة المنطقة كلها، ولا يكفي الصربنة بالاحتلال بل لا بدّ من تحويل السكان إلى نصارى أرثوذكس، وبدأ الاضطهاد وهاجرت جماعات إلى تركيا والشام. وكذلك أُعطيت اليونان جزءاً من جنوبي ألبانيا، وهو مقاطعة شاميريا.

خضع إقليم كوسوفا مع غيره أثناء الحرب العالمية الأولى للاحتلال البلغاري - النمساوي.

تبعت كوسوفا بعد الحرب العالمية الأولى إلى المملكة الصربية، وبدأت الجرائم ضدّ المسلمين بصفتهم أتراكاً ما داموا مسلمين.

وفي عام ١٣٥٢هـ (١٩٣٤م) جرى اتفاق بين ملك الصرب، ورئيس تركيا مصطفى كمال على تهجير الألبان، وعلى أن يدفع ملك الصرب مائة ليرة ذهبية لمصطفى كمال مقابل هجرة كل فرد.

وفي عام ١٣٥٧هـ (١٩٣٨م) جرى اتفاق بين تركيا ويوغوسلافيا على تهجير أربعمائة ألف عائلة ألبانية خلال السنوات الثمانية التالية.

وأُنشئت دولة يوغوسلافيا، وسيطر عليها الصرب، وتكفّلت أوربا بتمويل الصرب ليكونوا منطقة عازلةً، وخط دفاع أول في البلقان ضدّ أي غزو إسلامي لأوربا يأتي عن طريق البلقان، وهذا ما جعل الصرب يتيهون على أوربا بأنهم يحمونها من الهجوم الإسلامي، ويكررون ما قاموا به من جرائم ضد المسلمين على مدار تاريخهم.

وأدخل الصرب أعداداً كبيرة منهم إلى البوسنة وإلى كوسوفا لإدارة المؤسسات الحكومية، ولم يحدث ما يستحق الذكر بالنسبة إلى كرواتيا وسلوفينية من قبل الصرب، ما دام سكان هاتين الدولتين من النصارى، ولكن ذهب ربع السكان ضحية في البوسنة، وخرج مليونا إنسان ولا يزالون لا يستطيعون العودة إلى ديارهم.

أعلن قادة حركة التحرير الشعبي ليوغوسلافيا أثناء الحرب العالمية الثانية أن الشعب الألباني في كوسوفا سيُمنح حق تقرير المصير بعد الحرب، ولكن بعد النصر أرسل الحزب الشيوعي وحدات من الجيش لاحتلال كوسوفا، فقاوم الألبان ثلاثة أشهر من ذي القعدة ١٣٦٣ إلى صفر ١٣٦٤هـ (تشرين الثاني ١٩٤٤

إلى شباط ١٩٤٥م)، وقُتل في هذه المرة سبعة وأربعون ألف ألباني.

وفي عام ١٣٦٤هـ (١٩٤٥م) قررت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي تقسيم الأراضي الألبانية المحتلة بين ثلاث جمهوريات، وهي صربيا، والجبل الأسود، ومقدونية لتخفيف وطأة الألبانيين، وكانت كوسوفا من نصيب صربيا.

وفي شهر رمضان ١٣٦٤هـ (تموز ١٩٤٥م) قام الصرب بذبح سبعة وأربعين ألف مسلم من كوسوفا، فتشكّلت لجنة مقاومة سرية. كما كان الاضطهاد للمسلمين عامةً. وقد أباد (تيتو) أربعة وعشرين ألف مسلم.

وفي عام ١٣٦٥هـ (١٩٤٦م) ألغت الدولة الشيوعية المحاكم الشرعية، ومنعت الحجاب. كما أنشأت مجلس المشيخة الإسلامية وتضمّ عناصر ترضى عنهم الدولة، ويريدون العاجلة ويسعون لها دون أن ينظروا إلى الآخرة، وقد وافقوا على تصرّفات الدولة، وأسموا موافقتهم «فتوى»، ودعا مجلس المشيخة المسلمين إلى الهدوء، وأطلق على من سجنتهم الدولة اسم الإرهابيين. كما عملت الدولة الشيوعية على فرض التعليم الماركسي، وعلى إفساد

الفتاة المسلمة، والزواج من غير المسلم، والتجنيد الإلزامي، فهاجر إلى الخارج ما يقرب من أربعة ملايين مسلم مما زاد في ضعف موقف المسلمين.

ومنع التعليم الديني في كوسوفا. وكان مجلس المشيخة الإسلامية يلعب دوراً سلبياً إذ يُعيَّن أعضاؤه من قبل الدولة الحاقدة على المسلمين، فمثلاً يقول حسين موكيج رئيس العلماء اليوغوسلافي: الصرب النصارى الذين حاربوا بجانبنا ضد الألمان هم إخواننا وليس العرب المسلمون أو غيرهم.

ودعت الدولة إلى تحديد النسل فدعم مجلس المشيخة ذلك بفتوى مُؤيّدة.

وصدر دستور جديد عام ١٣٦٥هـ (١٩٤٦م) نصّ على تبعية كوسوفا لصربيا كإقليم يتمتع بالحكم الذاتي، غير أن هذا قد أُلغي في العام نفسه، فأخذت المقاومة طريقها، وبدأ الصراع، وسار الصرب في أسلوب الإبادة للمسلمين فقد تمّ إعدام أربعين عالماً في مدينة «بيلة» في يوم واحد. وعُدّل الدستور عام ١٣٨٨هـ (١٩٦٩م) واستعاد أهل كوسوفا حقهم في الحكم الذاتي.

وفي عام ١٣٩٤هـ (١٩٧٤م) صدر دستور جديد حيث توسّع

نطاق الحكم الذاتي في كوسوفا، وأصبحت مقاطعة اتحادية كبقية الوحدات. واعتُرف بالإسلام رسمياً في يوغوسلافيا وأنه يمثّل ٢٥٪ من عدد السكان.

ومات تيتو عام ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م) وخاف سكان كوسوفا من ضياع ما حقّقوه فقاموا بمظاهرات سلمية في ٦ جمادى الأولى ١٤٠١هـ (١١ آذار ١٩٨١م) تطالب بإقامة جمهورية ألبانية في كوسوفا، وقد كان قادة الصرب الجدد يرون أن إقليم كوسوفا قد أخذ أكثر من حقه. وكان ردّ الفعل على هذه المظاهرات السلمية همجياً إذ كان حركة قمع وإبادة، وأصبحت تقوم مظاهرات مدة عشرات سنوات في مثل هذا اليوم (١١ آذار) ذكرى لتلك المظاهرات.

وأخذ الصرب بالعمل لإلحاق إقليم كوسوفا بالصرب، وتقدّمت الوحدات العسكرية الصربية لحصار المجلس النيابي الكوسوفي وإجبار أعضائه بالقوة على إصدار قرار بإلغاء الحكم الذاتي، وإعادة الهيمنة الصربية على الشعب المسلم وذلك في شعبان عام ١٤٠٩هـ (آذار ١٩٨٩م). ولكن هذا الأمر قد رُفض كما رُفض الأسلوب الذي اتُّبع فعقد المجلس النيابي الكوسوفي

اجتماعاً في مدخل بناء المجلس النيابي، إذ لم يسمح لهم بدخول المبنى، وأصدر المجلس قراراً برفض إلغاء الحكم الذاتي. فكان أن ألغت صربيا المؤسسات التي تُمثّل الشعب الكوسوفي. ثم فرضت صربيا حالة الطوارئ على كوسوفا عام ١٤١٠هـ (١٩٩٠م).

وفي عام ١٤١١هـ (١٩٩١م) جرى في كوسوفا استفتاء عام، وصوّت الشعب إلى جانب الاستقلال بنسبة ٩٩,٨٧٪، وأُعلنت كوسوفا جمهورية مستقلة، ولكن لم يعترف بها سوى ألبانيا، غير أن البوسنة، وكرواتيا، وسلوفينيا قد أيّدتها، واختير إبراهيم روجوفا رئيساً لكوسوفا. وأعلن الرئيس الألباني صالح بريشا أن كوسوفا جزء من ألبانيا فخافه الغرب فعمل على احتوائه. ذلك أن الغرب يخشى قيام دولة إسلامية على مقربة منه حيث يخاف على عقيدته أن تنتهي ويتركها الشعب لأنها هشّة ولا تنسجم مع الفطرة البشرية، ويرى صفاء الإسلام وانسجام منهجه مع النفس الإنسانية فيتبع المرء الأمر الصحيح وما يتفق مع العقل.

جيش تحرير كوسوفا:

في منتصف جمادى الآخرة من عام ١٤١١هـ (مطلع عام ١٩٩١م) أُعلن لأول مرةٍ عن عمليةٍ عسكريةٍ قام بها جيش تحرير

كوسوفا. وأُعلن عن قيامه رسمياً عام ١٤١٣هـ (١٩٩٣م) ولكن تبرّأت منه الأحزاب كافةً سوى حزب البرلمانيين، غير أن هذا الجيش قد وجد تعاطفاً واسعاً لدى المجتمع، وخاصةً الطلبة، وأُعلن أن الناطق الرسمي باسم هذا الجيش هو آدم ديماتشي، وهو أستاذ جامعي.

يتألف هذا الجيش من مسلمين ملتزمين، ومن قوميين، ومن شيوعيين، ويضمّ خمسين ألف جندي، وشعاره (لله وللوطن).

غيّر زعيم حزب الرابطة الكوسوفية إبراهيم روجوفا موقفه، وأصبح يتصل بقادة هذا الجيش، وغدا يعقوب كراسنيتشي المتحدّث الرسمي باسم جيش تحرير كوسوفا.

كان أسلوب قتال هذا الجيش حرب العصابات في بداية الأمر، ثم اتخذ أسلوب المواجهة والمنازلة رسمياً، ولكنه رجع إلى أسلوب حرب العصابات.

وقامت المظاهرات الصربية في بلغراد من قبل الأمهات تنتقد السياسة الصربية، وكانت الهتافات (ادفع بابنك يا ميلوسوفيتش).

كما أن المسؤولين في مقاطعة الجبل الأسود قد طلبوا بعدم زجّ قوات المقاطعة في الحرب العنصرية.

وفي شهر صفر ١٤١١هـ (أيلول ١٩٩٠م) عقد المجلس النيابي في كوسوفا اجتماعاً سرياً في (قاشانق)، وأسفر هذا الاجتماع عن إعلان دستور جديد يُقرّر إقامة جمهورية كوسوفا اليوغوسلافية.

وفي العام نفسه انهار الاتحاد اليوغوسلافي مع انهيار الشيوعية العالمية، وأعلن استقلال أربع جمهوريات يوغوسلافية وهي:

١- صربيا.

٢- البوسنة والهرسك.

٣- كرواتيا.

٤- سلوفينيا.

وفي شهر صفر ١٤١٢هـ (أيلول ١٩٩١م) قرر مجلس الشعب الكوسوفي في اجتماع عقده إعلان كوسوفا جمهوريةً مستقلةً، وقرّر إجراء استفتاء حول هذا القرار، ورغم محاولة صربيا الوقوف في وجه هذا الاستفتاء، ومنع السكان من الوصول إلى المدن والقرى وعددها ١٣٤٨ مدينة وقرية فقد تمّ، واستغرق خمسة أيام ١٨-٢٢ ربيع الأول ١٤١٢هـ (٢٦-٣٠ أيلول ١٩٩١م)، واشترك فيه ٨٧٪ من الناخبين، وكانت النتيجة موافقة ٩٩,٨٧٪ على الاستقلال.

اختار مجلس الشعب الكوسوفي حكومة جديدة برئاسة الدكتور يويار بوقوشي، وأعلنت الحكومة موافقتها على البقاء ضمن الاتحاد اليوغوسلافي على أساس المساواة مع الآخرين إذا قُدّر له أن يقوم، والإصرار على الاستقلال التام إذا ما قرّرت جمهوريات الاتحاد الانفصال وإقامة كيانات سياسية مستقلة.

رفضت صربيا كل ما تمّ، وأعلنت أن ما تمّ كان بصورة غير شرعية، وأخذت بالاستعداد لإقامة مذبحة لحسم الموقف.

وأخذ الكوسوفيون بالاستعداد لإجراء انتخابات نيابية في الأسبوع القادم، وأصبح مقرّ الحكومة في مدينة جنيف بسويسرا، لتكون حرية اتخاذ القرار والتصرّف بعيدةً عن أيدي الصرب.

بدأ تحدّي الصرب للألبان الكوسوفيين، وأخذوا بطرد العائلات من بيوتها، وأُغلقت جامعة برشتينا وبعض المدارس الألبانية، واحتلّ الصرب مبنى الإذاعة والتلفزيون في برشتينا عن طريق الشرطة، وأُلغيت المحكمة العليا، ودخلت قوات صربية حتى أصبحت كوسوفا كأنها تحت الاحتلال العسكري.

وفي عام ١٩٨٩م وبمناسبة مرور ستمائة سنة على معركة كوسوفا التي انتصر فيها العثمانيون أخرج الرئيس الصربي (تابوتاً)

لأمير صربي قُـتل في معركة كوسوفـا عام ١٣٨٩م، ورتّب للقيام بجولة بهـذا التابوت في أرجـاء يوغوسلافـيا كافـة مع المسؤولين ورجال الكـنيسة الأرثـوذكسيـة ليُزكي نار الحـقد ضـد المسلمين، وليقول: هذا ما فعله المسلمون.

وأخرج الصـرب العائلات الصـربية التي تُقـيم في كوسـوفـا، وأبقـوا عصـابات صربيـة مُدرّبة على الإجـرام لتقـوم بالأعمـال الإجرامـية مـا شاء لهـا هواها أن تقوم، وهم يخططون لـتوطين صربيين مكان الأسر المقتولة أو المشرّدة من المسلمين.

أسلوب الصرب:

عندما يُقرّر الصرب القيام بجريمة يقومون بـ:

١- يدفعون الأقليـة الصربية للاشتبـاك مع السكان ثم تتدخّل القوات العسكرية الصربية.

٢- يدفعـون جمـاعات من الصـرب للاستيطـان مكان الأسر المقتولة أو المهجّرة.

٣- يُشرّدون ما استطاعوا من السكان لتخفّ المقاومة.

٤- يصادرون ما أمكنهم مصادرته من أملاك السكان.

الأحداث الأخيرة

قرّر الصرب القـيام بعمل يحسـمون فيه الموقف في كـوسوفا، ويُنهون أية مقاومة ويضمّون الإقليم الألباني (كوسوفا) إلى صربيا نهائياً، ويحوّلون سكانه إلى صرب حسب مفهومهم أي يصبحون نصارى أرثوذكس، فبدؤوا بما يلي:

١- عمـلوا على توطين ثمانيـة آلاف من الصرب فـي كوسـوفا، وكانوا قد فـرّوا من إقليم كرايينا في كرواتيـا، فأسكنوهم في الجامعات، والمدارس والمستشـفيات، ومنازل الألبان المهجرين، والشقق السـكنية. وشجـعوا الصرب عـامة على الاسـتيطان، وأشاعـوا بوجود الطمـأنينة وانتشار الأمن، ومنـحوا الوظائف والرواتب الضـخمـة لمن يُهاجـر من الصرب إلى كـوسوفـا، ووضعوا ميزانية لذلك للمساعدة على السكن، والبناء، وشراء الأماكن. وأذاعوا أن هجرة الصرب إلى كوسوفا والإقامة هناك واجب وطني.

٢- هُجّر أربعـمائة ألف ألباني مـسلم من إقليم كوسـوفا، وطُرد مائة وخمسون من وظائفهم.

٣- صودرت بعض الممتلكات الألبانية.

٤- توقّف البثّ باللغة الألبانية بالإذاعة والتلفزيون، كما مُنع صدور الصحف باللغة الألبانية، وصودرت الصحف. وأُغلقت جامعة برشتينا.

قررت مجموعة الاتصال الدولية في ١١ ذي القعدة ١٤١٨هـ (٩ آذار ١٩٩٨م) فرض حظر تصدير السلاح إلى يوغوسلافيا بما فيها كوسوفا. والقرار رسمي، ولكن يمكن تنفيذه على كوسوفا فقط، أما صربيا فإن السلاح يأتيها بصورة غير رسمية وبكميات كبيرة وعلى مرأى الأشهاد من روسيا، ورومانيا، وبلغاريا، واليونان و. .

وكان كارادتيش يصرّح علناً أن الصرب تحمي أوربا من الخطر الإسلامي، وقد قام الصرب بهذه المهمة منذ دخول العثمانيين أوربا وإلى اليوم، وكذا كانت تصريحات سلوبودان ميلوسوفيتش.

موقف روسيا:

وكانت روسيا تضغط على ألبانيا لتقف على الحياد، فإن روسيا تقف إلى جانب صربيا وتدعمها عقيدة، وتعمل على ألا تتدخل أمريكا أو دول أوربا الغربية في مناطق تعدّها روسيا من اختصاصها سياسياً، أو جغرافياً، أو عقيدة.

موقف ألبانيا:

ورئيس وزراء ألبانيا (فاتوس نانو) وخليفته (بانديل مايكو) لا يحتاجان إلى الضغط عليهما إذ كلاهما أرثوذكسي فهما مع صربيا عقيدة وليس مع كوسوفا عنصرية، وكانا يُصرحان أن القضية داخلية، وليس من حق ألبانيا أن تتدخّل في شؤون الجوار الداخلية، كما أنهما شيوعيان. ولكن الموقف الشعبي يختلف عن الموقف الرسمي الحكومي، إذ أن الشعب في ألبانيا يقف بجانب إخوانه في كوسوفا بكل قلبه، ويعمل على دعمهم.

موقف أوربا:

ترى أوربا أن الرئيس الصربي سلوبودان ميلوسوفيتش إنما يمثّل الكنيسة الأرثوذكسية في البلقان على الأقل لذا فأوربا حذرة من ناحيتين متقابلتين.

١- فأوربا لا تريد زيادة قوة صربيا ولو كانت على حساب المسلمين وذلك خوفاً من أن تكون هذه القوة في يوم من الأيام ضدها وخاصة أن صربيا تتلقّى دعماً كبيراً من الأرثوذكس سواء أكان ذلك من روسيا أم من بلغاريا أم من اليونان.

٢- تخشى أوربا من أن تستعمل ضغطاً كبيراً ضد صربيا فيكون

ذلك لمصلحة المسلمين، وهذا أمر ترفضه أوربا، وهو مدار سياستها على مدى التاريخ.

ومن هاتين النقطتين تنطلق السياسة الأوربية، فلا تدعم أوربا صربيا بقواها كلها، ولا تقف في وجهها بحزم، فهي لا تحبها ولا تكرهها. ولذا فالقرار الأوربي غير متفق عليه إلا من جهة معاداة الإسلام.

موقف الولايات المتحدة:

تريد الولايات المتحدة أن تظهر بموقف القوي الذي لا تُحل مشكلة في العالم إلا حسب رأيها، وأن موقفها هو الفصل في كل قضية، ويمكن أن تُذيع بمختلف وسائل الإعلام أخباراً تجعل رأي المجتمع في منطقة يقف بجانب طرف ويُعادي آخر أو يتهم مواقف الفريق المفاوض الذي يلتقي معه، فكثيراً ما كان تصرّف مساعد وزير الخارجية الأمريكية مع وفد كوسوفا يُشكّك المسلمين بارتباط الوفد بالسياسة الأمريكية.

الأحداث:

في ٧ ذي القعدة ١٤١٨هـ (٥ آذار ١٩٩٨م) قامت القوات الصربية بدكّ قرية (بريكاس) وأشعلت النيران فيما تبقى من منازلها.

ثم توجهت القوات إلى (درينيتسا) و(اسكندراي) و(ليكوسان) لتقتل النساء الحوامل والرضّع والعجائز والأطفال. عائلة كاملة، وهي عائلة (أحمدي) قُتل منها أحد عشر فرداً، وأخرى ذبحوا أربعة من أطفالها أمام عيني أمهم، ولكن ليس هذا فحسب فقد قامت القوات بتقطيع (آسف.. الأعضاء الجنسية) لمن اشتبهت في أنهم من عناصر المقاومة الكوسوفية، وهذا ما دفع المواطنين إلى رفض استلام جثث القتلى قبل أن يرى العالم بعينيه مجازر الصرب[١].

وذُبح الكثير من المسلمين من أبناء مدينة درينيتسا، إضافة إلى الذين فرّوا من المدينة، وقد زاد عدد المهاجرين على مائتي ألف، منهم خمسة وسبعون ألفاً اتجهوا إلى خارج البلاد، ومائة وخمسة وعشرون ألفاً بقوا داخل بلاد البلقان.

وكان هذا بدء الغزو الأخير، وكان مخطط الصرب على ما يبدو دفع الألبان المسلمين في مناطق وسط كوسوفا والمتاخمة للقرى الصربية إلى الخروج من قراهم والتوجّه غرباً لتزيد رقعة الأراضي التي يُسيطر عليها الصرب ويزعم بعدها الصرب أن هذا الجزء صربي.

(١) مآسي الألبان في بلاد البلقان. د. حمزة سعد زوبع.

وكان الاستيطان الصربي في كوسوفا ودعمه بالمال من أجل شراء الأرض، ومن أجل بناء المساكن قائماً منذ مدة بعيدة.

وكان قد هُجّر أربعمائة ألف من الألبان المسلمين قبل الغزو الصربي الأخير، وهُجّر بعده ثلاثمائة وثمانون ألفاً.

وتوالت جرائم الصرب، وتوالت اللقاءات، وزادت اجتماعات مجلس الأمن، وكثرت إدانات الصرب.

وتعدّدت لقاءات الرئيس الكوسوفي إبراهيم رجوفا والرئيس الصربي سلوبودان ميلوسوفيتش، وكان آخر لقاء بينهما في ربيع الثاني ١٤١٩هـ (آب ١٩٩٨م).

وفي يوم الخميس ١٠ جمادى الآخرة ١٤١٩هـ (الأول من تشرين الأول ١٩٩٨م) أدان مجلس الأمن المذابح التي يرتكبها الصرب ضدّ المسلمين في كوسوفا إدانة كلامية هوائية إعلامية مدوّنة في محاضر جلسات مجلس الأمن.

وفي يوم الثلاثاء ٢٣ جمادى الآخرة ١٤١٩هـ (١٣ تشرين الأول ١٩٩٨م) جرى اتفاق بين مساعد وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية (ريتشارد هولبروك) وبين الرئيس الصربي (ميلوسوفيتش) ويتضمن هذا الاتفاق:

١- انسحاب القوات الصربية إلى المواقع التي كانت فيها قبل الغزو الصربي لكوسوفا في ١١ ذي القعدة ١٤١٨هـ (٩ آذار ١٩٩٨م).

٢- السماح للمراقبين الدوليين.

٣- تحليق طائرات حلف شمالي الأطلسي فوق كوسوفا.

٤- السماح بعودة اللاجئين وتقديم المساعدات لهم.

ولكن الصرب لم يبالوا بهذا الاتفاق، ولم يكن سوى كلام مدوّن، فاستمرت المذابح وتفاقم الأمر.

وفي ٢٨ رمضان ١٤١٩هـ (١٥ كانون الثاني ١٩٩٩م) أدان مجلس الأمن المذابح الصربية إدانة كلامية أخرى. بعد مذبحة (لاتشاك) وتقرّر توجيه ضربات جوية على صربيا لإرغامها على تنفيذ قرارات مجلس الأمن وما تمّ الاتفاق عليه وقام طيران حلف شمالي الأطلسي بتوجيه هذه الضربات، ورغم الدعايات الإعلامية الواسعة عن كثافة هذا الضرب والإمكانات الضخمة للطيران إلا أن ذلك لم يُؤدّ إلى نتيجة.

وذُكر أن ضربات الحلف الجوية غير كافية لإرضاخ صربيا. وأن

الحلف لا يستطيع ضرب صربيا دون مُبرر. فالغرب لا يعترف بكوسوفا كدولة مستقلة، وبالتالي لا بدّ من بحث عن سبب الضربة الجوية. وليس هناك من نصّ في قرارات الأمم المتحدة، ولا المجموعة الأوربية، ولا مجموعة الاتصال يفرض شيئاً على صربيا سوى وقف القتال.

وذُكر أن روسيا والصين غير مقتنعتين بأن المذابح تكفي حُجّة للضرب ما دامت القضية داخلية.

وصرّح الجنرال جورج جولوان قائد قوات التحالف الأطلسية سابقاً أن: الضربة الجوية لن تُحقق شيئاً، والأمر يحتاج إلى تدخل أرضي.

وأخذت التصريحات تنطلق بتفضيل الحل السلمي.

وذُكر أن ما تكبّدته الولايات المتحدة من نفقات في مشكلة البوسنة يجعل حكومتها لا تستطيع مفاتحة المجلس النيابي في بلادها بتخصيص نفقات جديدة في كوسوفا.

لم يُنظر إلى بشاعة المجازر، وقذارة الجرائم، وشدّة الظلم، وكثرة القتل، وقد اكتشفت مقابر جماعية، ولكن هذه لن تُسبب مشكلة ما دامت قد حُفرت للمسلمين وتكدّست فيها أجساد منهم.

والواقع أن الضربات الجوية كانت دعائية أكثر منها جدية فكانت على المطارات وليس فيها طائرات، وعلى عرصات خالية، وخرائب فارغة، وإن كانت على كوسوفا ألحقت أضراراً بالمسلمين ولم ينل المغتصبين منها شيء. فهي أقرب إلى التمثيل. وأُطلقت دعايات لقدوم قوات برية ولكن لم يُر لها أثر.

والنتيجة فحلف شمالي الأطلسي بإمكاناته الضخمة وقواته الكبيرة التي تضمّ قوات مجموعة دول تُعدّ قواتها من أوائل القوات في العالم ومع ذلك لم تستطع أن تُرغم دولة صربيا الصغيرة على التنازل عن موقفها، وهذا إن دلّ فإنما يدلّ على عدم مصداقية العمل، وعدم الجدية في الضربات، ومحاولة إعطاء صورة إعلامية ضخمة للمجتمع الدولي مع أن الهدف الضمني غير الهدف المعلن.

ولنستشعر فداحة الأحداث نقول: إثر مذبحة درينيتسا فقط قُتل:

١٧٠ امرأة.

٣٠٠ رجل.

٨٠٠ إنسان اختفى.

ودُمّر: ٤٠٠ قرية.

١٤٠٠ منزل.

وشُرّد: ٣٨٢,٠٠٠ إنسان منهم: ٤٠,٠٠٠ في الجبل الأسود.

٢٥,٠٠٠ في مقدونيا.

١٥,٠٠٠ في ألبانيا.

١٥,٠٠٠ في دول أوربا.

٢٨٧,٠٠٠ في الأحراش.

٣٨٢,٠٠٠

ومن هذه الأرقام نستشعر أرقام حصاد الأحداث كلها والتي لم تُعلن بشكل صحيح.

الخاتمة

مجار من الدماء سالت، وأجسام في قبور جماعية سرية تكدّست، ومثلها بجَدَثٍ انفردت في أنحاء الإقليم كله، وأشلاء بالعرين تناثرت، ومئات الألوف هامت على وجهها، لا تعرف المصير، ولا إلى أين تسير، تبيت على الطوى، تفترش الأرض، وتلتحف السماء، لا يغمض لها جفن حذراً على نفسها، وتفكيراً بأهلها.

منكرات لا تُعدّ ارتُكبت، وجرائم لا تُحصى افتُعلت، وبُرك من الدماء تسبح فيها قطع من أعضاء الأجسام بُترت تراها تحت ضوء أشعة القمر تنظر إليها العين دامعة سابحة مثلها في الخيال تُفكّر في يوم الحساب، حساب البغاة، ومصير الطغاة، وجزاء المجرمين. هذه عين فُقئت، وهذا ثدي قُطع، وهذه كفّ بُترت، وهذا عضو تناسلي سُحب، وهذه رأس رضيع احتُزّت، وهذه أمعاء طفلة أُخذت، وهذا جنين أُلقي بعد بقر بطن أمه و...... وكلها تعوم في برك الدم الذي لم يتخثر بعد لقصر مدة الوقت الذي مرّ على ارتكاب الجريمة.

وعلى رابية قريبة من هذا المشهد تتبعثر أجساد فتيات كضوء

الشمس إذا طلعت، عُرِّين من ثيابهن، ثم اغتُصبن، ثم قُتلن، وشعرهنّ مبعثر منفوش، وقطع منه على الجسم تُشير إلى العنف، ولطخات من الدم على الفخذ تدلّ على الجرم.

ومع كل هذه المنكرات والجرائم لم يُرْوَ غِلّ الكافرين، فحقدهم على الإسلام أكبر، فلو يشرب أحدهم دماء المسلمين كافةً لم يُرو ظمؤه من دمائهم بل يطلب المزيد، كما لم يخفف ذلك من حقدهم شيئاً إذ أن حقدهم أعظم فليت قومي يعلمون، وينتبهون، ويحذرون.

وصحا بعض المسلمين على أحداث كوسوفا من الأخبار فصحوا على أنفسهم، ورجعوا يُفكرون بجهلهم في مواطن إخوانهم المسلمين، وفي حياتهم وما يُعانون، وفي مُشكلاتهم وما يُقاسون، ويندمون على ما فات، ويعدون أنفسهم بالتعويض مستقبلاً. وكان هؤلاء المسلمون يعيشون بجوارحهم كلها مع إخوانهم، وهم معهم بعواطفهم على عتبات المذابح، وفي الأحراش، وفي الدروب المسدودة، ومعهم ينظرون إلى أبنائهم يُذبحون، وإلى فتياتهم تُغتصبن، وإلى زوجاتهم الحاملات تبقر بطونها ويُلقى بجنينها و.....

ولم تكن في البلدان الإسلامية إذاعات مُوجّهة، ولا محطّات مُخصصة، ولا برامج للتعريف، كما لم تكن صيحات للدعم، ودعوات للجهاد، وتهديدات للأعداء، وإنذارات لمن يدعم الأعداء، بل لم يكن دور للمسلمين أبداً مع أنهم طرف على الساحة، وجانب في وسط الأحداث. ومع ذلك وجدت مساعدات مادية كبيرة، وإسعافات صحية، وخيام للسكنى وما يلزم للمشرّدين المُهجّرين من بعض الدول الإسلامية كالمملكة العربية السعودية التي قدّمت دعماً سخياً، ووجدت فيها هيئات للجمع والمساعدات و.....

وهدأت الزوبعة، وتوقفت الأحداث، وانتقلت موجات الأثير بالمسلمين إلى كشمير حيث تجدّدت فيها الأحداث، وقد مرّ عليها ثلاثة وخمسون عاماً ما انقطعت عن المسلمين النكبات والمحن فيها إلا فترات قصيرة، ثم تعود، فحقد الكافرين على المسلمين لا ينقطع.

وبعد كشمير تنقلنا موجات الأثير إلى محنة ثانية للمسلمين في موطن آخر لهم، وهكذا تستمرّ الأحزان وتتوالى المآسي، وينسى المسلمون نكبة الأمس ليستقبلوا نكبة جديدة، وينسوا موطناً تعرفوا

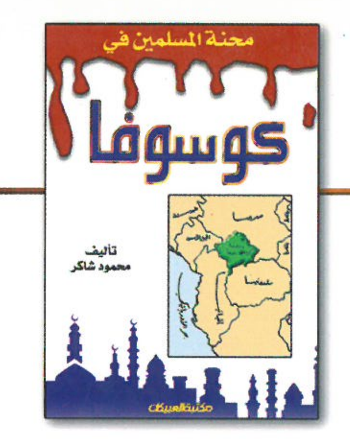
عليه لمصيبة نزلت بإخوانهم قريباً ليتعرّفوا على موطن جديد.

فيا أيها المسلمون تعرّفوا على مواطن إخوانكم، وادرسوا مُشكلاتهم، وتعاونوا معهم، واعملوا على مساعدتهم ومدّ يد العون لهم علماً، وفكراً، وعملاً، فأنتم حملة أمانة يجب عليكم أن توصلوهم إلى العالم.....

أيها المسلمون: واحذروا الأعداء فإن كيدهم عظيم، ومكرهم كبير، وحقدهم دفين، فلا توالوا أحداً منهم، فلا عهد لهم ولا أمان. وإن ما يجري على ساحة الأرض كلها كافٍ للذكرى والاعتبار.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

المحتويات



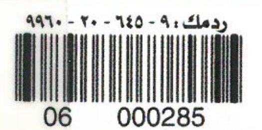
إخوة لنا في مواطنَ كثيرةٍ لا نعرفهم، ولا نعلم ديارهم، ولا ندري عنهم شيئاً، ولا نسمع أخبارهم، تستأسد عليهم الوحوش، وتعمل بهم فرياً أنياب الذئاب، وتُسدَّد عليهم السهام، وتُوَجَّه إليهم التهديدات، وتُصوَّب نحوهم القذائف، وإخوانهم عنهم غافلون، وبهم جاهلون، ونحوهم مُقصِّرون، وعن الساحة غائبون، فيُعتدى على مواطنهم فينالهم الأذى، ويُصيبهم الأسى، ويلحق بهم الضيم، وتُهدَّم دورهم، وتُخرَّب منازلُهم، وتُنهبُ أملاكهم، وتُقتَّلُ رجالهم، وتُنتهكُ حُرماتهم.

وبعد أن يُردِّد الأثير صدى أنينهم، وينقل الهواء أخبار توجُّعهم، وتحمل الموجات صراخ أطفالهم، ويضجُّ العالم بما حلَّ بهم من جرائم عندها يسمع الإخوة ما نزل بإخوانهم بعد أن فات الذي فات، فمنهم من يحمل الحسرات، ومنهم من يُكثر التأوُّهات، ومنهم من يزيد الشكوى ويتأسف على التقصير. والكثير الذي ينسى ما حدث بذاك الموطن وما نزل بأهله حيث تنتقل الفاجعة به إلى آخرين في موطنٍ ثانٍ نتعرَّف عليه. ويُنسي هولُ المصيبة خبرَ تلك الفاجعة.

هذا ما حلَّ بإخوتنا في « كوسوفا » ومَنْ سبقهم، ومَنْ لحق بهم.

الناشر

ردمك: ٩ - ٦٤٥ - ٢٠ - ٩٩٦٠


06 000285